

جامعة النجاح الوطنية

عمادة كلية الدراسات العليا

الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول ﷺ

وأثرها في بناء شخصية الداعية

في ضوء القرآن الكريم

إعداد

يوسف محمد محمود زقوت

إشراف

د. عودة عبد الله

قُدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2017

الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول
وأثرها في بناء شخصية الداعية
في ضوء القرآن الكريم

إعداد

يوسف محمد محمود زقوت

نُوقِشت هذه الرسالة بتاريخ 2017/2/7 وأُجيزت

أعضاء لجنة المناقشة:

التوقيع:

.....

– د. عودة عبد الله / مشرفاً ورئيساً

.....

– د. سعيد دويكات / ممتحناً خارجياً

.....

– د. خضر سوندك / ممتحناً داخلياً

الإهداء

إلى روح أبي الطاهرة، وهو الذي أضاء دربي بتوجيهاته النيرة

إلى أمي الحبيبة التي أمدتني بوقود دعواتها الصادقة

إلى زوجتي الوفية (أم البراء) التي كانت لي نعم العون في كل ملّة،

وخير سلوان في كل محنة

إلى أولادي (براء وعبد الرحمن ومحمد) الذين أسأل الله أن يصنعهم على

عينه ويصطنعهم لنفسه

إلى إخواني وأخواتي الذين أكرموني بعظيم وقفاتهم المباركة

وإلى كل داعية اتخذ القرآن دستوراً ومنهج حياة، ولاقى في سبيله ما لاقى

من الابتلاءات والمحن

إلى إخواني الشهداء الذين قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل الله

إلى إخواني الأسرى الذي أفنوا أعمارهم ضريبة لما يحملون من دين

أهدي هذا العمل المتواضع

الشكر والتقدير

الشكر أولاً لله وحده، الذي كان لي خير معين ونصير.

ثم أتوجه بالشكر والتقدير إلى كل من مدّ لي يد العون والمساعدة

لإتمام هذه الدراسة، وأخصّ بالذكر:

د. عودة عبد الله

الذي بذل عظيم الجهد لتبصر هذه الدراسة النور.

فله مني كل تقدير ووفاء.

كما أتقدم بعظيم الشكر والامتنان إلى عضوي لجنة المناقشة، الدكتور سعيد دويكات

والدكتور خضر سوندك، اللذين تفضلاً بقبول مناقشة هذه الدراسة،

وإثرائها بتوجيهاتهم المباركة.

الإقرار

أنا الموقع / لة أدناه، مقدم / لة الرسالة التي تحمل العنوان:

الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول ﷺ وأثرها في بناء شخصية الداعية في ضوء القرآن الكريم

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The Work Provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's Name : يوسف محمد محمود زحور

Signature :



التوقيع:

Date :

٢٠١٧ / ٢ / ٧

التاريخ:

فهرس المحتويات

العدد	العنوان	الصفحة
١	الإهداء	ج
٢	الشكر والتقدير	د
٣	فهرس المحتويات	هـ
٤	الملخص	ي
٥	المقدمة	١
٦	الفصل الأول معنى الابتلاء وحتميته والحكمة منه	٦
٧	المبحث الأول: معنى الابتلاء	٧
٨	المبحث الثاني: حتمية الابتلاء	١٠
٩	المبحث الثالث: الحكمة من الابتلاء	١٢
١٠	أولاً: الابتلاء ضرورة للتمكين	١٢
١١	ثانياً: التصفية والتمايز	١٣
١٢	ثالثاً: تطهير النفس وتركيتها	١٦
١٣	رابعاً: المحاسبة والمراجعة	٢٠
	الفصل الثاني	

٢٣	صور الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول ﷺ في القرآن الكريم	١٤
٢٤	المبحث الأول: الإعراض والمعاندة	١٥
٢٤	المطلب الأول: الإعراض والمعاندة من قبل المشركين	١٦
٣٠	المطلب الثاني: الإعراض والمعاندة من قبل اليهود	١٧
٣٤	المطلب الثالث: الإعراض والمعاندة من قبل المنافقين	١٨
٤١	المبحث الثاني: السخرية والاستهزاء	١٩
٤١	المطلب الأول: السخرية والاستهزاء من قبل المشركين	٢٠
٤٤	المطلب الثاني: السخرية والاستهزاء من قبل اليهود	٢١
٤٦	المطلب الثالث: السخرية والاستهزاء من قبل المنافقين	٢٢
٥٠	المبحث الثالث: الإغراءات الدنيوية والمساومة على الدين	٢٣
٥٦	المبحث الرابع: الحرب الإعلامية	٢٤
٥٦	المطلب الأول: الاتهامات الشخصية	٢٥
٥٦	أولاً: اتهامه ﷺ بالكذب	٢٦
٥٧	ثانياً: اتهامه ﷺ بالشعر	٢٧
٥٩	ثالثاً: رميه بالجنون	٢٨
٦٠	رابعاً: السحر والكهانة	٢٩
٦٢	خامساً: أنه جاء بالقرآن من عند غير الله	٣٠

٦٤	المطلب الثاني: المطالب التعجيزية	٣١
٦٨	المطلب الثالث: إثارة الشبهات حول الدعوة	٣٢
٧٢	المطلب الرابع: خللة الصف المؤمن وإضعاف الثقة بالقيادة	٣٣
٨١	المبحث الخامس: التخويف والتهديد	٣٤
٨٣	المبحث السادس: الطرد والمطاردة	٣٥
٨٦	المبحث السابع: الحصار ومحاولة السجن	٣٦
٨٩	المبحث الثامن: الإيذاء الجسدي ومحاولات الاغتيال	٣٧
٩٠	المطلب الأول: الإيذاء الجسدي ومحاولات القتل من قبل المشركين	٣٨
٩٣	المطلب الثاني: محاولات اغتيال الرسول ﷺ وقتله من قبل اليهود	٣٩
٩٦	المطلب الثالث: محاولة اغتيال الرسول ﷺ وقتله من قبل المنافقين	٤٠
٩٧	الفصل الثالث أثر ابتلاءات الرسول ﷺ الخارجية في بناء شخصية الداعية	٤١
٩٩	المبحث الأول: الصبر والثبات	٤٢
١٠٧	المبحث الثاني: الثقة بصحة الطريق	٤٣
١١٤	المبحث الثالث: استشعار معية الله	٤٤
١٢١	المبحث الرابع: التركيز على الهدف الأساسي وعدم الالتفات لدعاوى أهل الباطل	٤٥
١٢٤	المبحث الخامس: التخطيط	٤٦

١٢٩	المبحث السادس: اليقين بنصر الله	٤٧
١٣٤	الخاتمة	٤٨
١٣٧	مسرد الآيات القرآنية	٤٩
١٤٧	مسرد الأحاديث النبوية	٥٠
١٥٠	فهرس المصادر والمراجع	٥١
b	الملخص باللغة الإنجليزية	٥٢

الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول ﷺ

وأثرها في بناء شخصية الداعية

في ضوء القرآن الكريم

إعداد

يوسف محمد محمود زقوت

إشراف

د. عودة عبد الله

الملخص

تبحث هذه الدراسة في موضوع من موضوعات القرآن الكريم، وهو الابتلاءات والمحن التي لاقاها رسول الله ﷺ أثناء نشره وجهه بالدعوة، والتي مارسها أعداؤه للنيل من دعوته والتقليل من أتباعه، ثم بحثت الدراسة في آثار تلك الابتلاءات على شخصية الداعية، وتتكون الدراسة من ثلاثة فصول وهي على النحو الآتي:

تتكون هذه الدراسة من ثلاثة فصول وخاتمة؛ تناولت في **الفصل الأول** معنى الابتلاء في اللغة والاصطلاح، وحتمية وقوعه فهو سنة من سنن الله في الكون، ثم ذكرت بعض الحكم من الابتلاء والتي منها: أن الابتلاء ضرورة للتمكين والظفر، فما من منحة إلا وسبقها محنة، ومنها التصفية والتمايز بين المؤمن الحق وبين المنافق، ومن حكم الابتلاء تطهير النفس وتركيتها برفع درجاته وتكفير سيئاته، ومن حكمه أيضاً محاسبة الذات ومراجعة وتقويم العمل.

أما **الفصل الثاني**: فقد ذكرت فيه صور الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول ﷺ في القرآن الكريم، وهذه الابتلاءات قد مورست من قبل أعدائه ﷺ أمثال كفار قريش ويهود ومنافقين، وهذه الابتلاءات على الترتيب: الإعراض والمعاندة، والسخرية والاستهزاء، ومحاولات الإغراءات

الدينية والمساومة على الدين، والحرب الإعلامية، والطرْد والمطاردة، والتخويف والتهديد، والحصار ومحاولة السجن، والإيذاء الجسدي ومحاولات الاغتيال.

أما **الفصل الثالث**: ذكرت فيه أثر ابتلاءات الرسول ﷺ الخارجية في بناء شخصية الداعية، واقتصرت على أهم هذه الآثار وهي: الصبر والثبات، والثقة بصحة الطريق، والتيقن من سلامة المنهج، واستشعار معية الله في كل ابتلاء وأذى، والتركيز على الهدف الأساسي وعدم الالتفات لدعاوى أهل الباطل، والتخطيط لمجابهة الابتلاء وعدم الاستسلام له أو التكيف معه، وآخر هذه الآثار؛ اليقين بنصر الله، فنصر الله عز وجل لدينه وأوليائه هو حقيقة قرآنية أثبتتها الله في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وهذا ما يحقق بالنفس ذلك اليقين والثقة والاطمئنان لما يحمله من فكر وأهداف نبيلة مهما لاقى في حياته من ابتلاء ومحن.

أما **الخاتمة**، فتوجز الحديث في أهم النتائج التي توصل إليها الباحث عبر هذه الدراسة.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الكريم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنّ البحوث القرآنية، رغم تعددها وكثرة جوانبها، تبقى عاجزة عن الإحاطة بكل الأسرار المتدفقة لهذا الكتاب، وما الابتلاء إلا سنة من سنن الله في الكون، تحت النفس على المجاهدة والصبر، وحال نبينا الكريم محمد ﷺ خير مثال يحتذى لكل الدعاة على مرّ العصور.

حظيت الابتلاءات التي تعرض لها النبي ﷺ بنصيب وافر من القصص واللوحات الفنية والتعبيرية في القرآن الكريم، والقرآن حينما يعرض لهذه القصص إنما يعرضها لاستخلاص العبر والعظات، ولتكون دليلاً للأمة المسلمة وللدعاة، تنير لهم الطريق وتهديهم سبيل الرشاد.

وحيث إن الابتلاءات التي تعرض لها النبي ﷺ كثيرة ومتعددة، عمدت هذه الدراسة لبحث الابتلاءات التي تعرض لها إثر جهره ﷺ بدعوته، والتي كانت بمثابة هجمات متتالية عليه ﷺ طمعاً في صده عن هذه الدعوة التي أخذت تمتد وتنتشر يوماً بعد يوم.

والذي دفعني إلى هذه الدراسة، هو حاجة الدعاة في هذه الأيام للوقوف على تلك الابتلاءات ودورها في بناء شخصية الداعية، حينما يدرك كنه صبره ﷺ وإصراره وتحديه وثباته وعمق الفكرة التي يحيا من أجلها، ويستعد للتضحية في سبيلها، وجهل الناس بموضوع الابتلاء وكيفية التعامل معه والصبر عليه. ولشحن همة الدعاة إلى الله وهم يلاقون اليوم أشد ألوان الأذى والابتلاء وقد تكالبت عليهم كل قوى الكفر والضلال والإلحاد في مشارق الأرض ومغاربها.

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات القرآنية التي تناولت الابتلاءات والمحن في حياة النبي ﷺ ولعل أهمها، حسب اطلاع الباحث، ما يأتي:

٧ دراسة رجب نصر موسى الأنس، وهي بعنوان **سنة الابتلاء في القرآن**^(١)، حيث عرض لسنة الابتلاء ومظاهره وصوره وضرورته، وتطرق في أحد فصوله إلى ابتلاءات الرسول في القرآن في بعض الغزوات، لكنه لم يحدد الابتلاءات والمحن في حياته ﷺ إثر جهره بدعوته، ولم يتعرض للآثار المترتبة عليها في بناء شخصية الداعية.

٧ دراسة عبد الله ميرغني محمد صالح، وهي بعنوان **الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم**^(٢)، حيث تحدث فيها عن صور الابتلاءات التي تعرض لها النبي ﷺ في مكة والمدينة، ولكنها جاءت عامة لم يخصصها بما جاء في القرآن الكريم، ولم تكن ملمة لجميع صور الابتلاءات ودراسة الآثار المترتبة عليها.

٧ دراسة باسم محمد محمد سيلان، وهي بعنوان **الابتلاء في القرآن الكريم**^(٣)، حيث تحدث فيها عن معنى الابتلاء، ثم معانيه في القرآن، ثم ذكر ابتلاءات الأنبياء كل على حدة وبعض الأمم السابقة من بني إسرائيل، وذكر الابتلاء بالجهاد وما أصاب الصحابة في غزوة بدر وأحد والأحزاب، وذكر عدداً من فوائد الابتلاء وحال الناس معه وما يعين عليه. لكنها لم تكن ملمة لجميع ابتلاءات النبي ﷺ على وجه الخصوص وما يتعلق بها من آثار.

٧ دراسة محمد عبد العزيز الحمادي الرحالي، وهي بعنوان **الابتلاء في القرآن الكريم**^(٤)، حيث تحدث فيها عن الابتلاء بشكل عام في القرآن وذكر أنواعه؛ ومنها الابتلاء بنعمة الولد وألوان المصائب وابتلاء الأنبياء وأتباعهم وقصص السابقين من بني إسرائيل وغيرهم، ثم ذكر بعض ابتلاءات النبي ﷺ وصحابته وما تعرضوا له في بعض الغزوات مثل بدر وأحد والأحزاب، لكنه لم يفصل في كل ألوان الابتلاءات التي تعرض لها النبي ﷺ.

(١) رسالة ماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح، نابلس، فلسطين. إشراف الأستاذ الدكتور: محمد حافظ الشريدة. نوقشت بتاريخ: ٢٢/١٠/٢٠٠٧م.

(٢) رسالة ماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(٣) رسالة ماجستير في جامعة الإيمان، عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي، في الجمهورية اليمنية، إشراف الدكتور: عبد اللطيف هائل، تمت المناقشة في ٢ فبراير، ٢٠١٤م.

(٤) رسالة ماجستير لكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، إشراف الدكتور: سمير عبد العزيز شيلوي. عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، تاريخ الإضافة: ٣/١١/٢٠١٢م.

٧ دراسة الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، وهي بعنوان الابتلاء والمحن في الدعوات، وتحدث فيها عن معنى الابتلاء، وبين أن للابتلاء نوعان: (١) الابتلاء الفردي؛ بفقد عزيز أو مرض أو خسارة مال وغير ذلك. (٢) الابتلاء الجماعي، وعدد كثيراً من صوره التي حدثت مع النبي ﷺ وأتباعه، وحدثت مع غيره من الأنبياء السابقين من اتهامات كاذبة، وسخرية واستهزاء وتهديد ووعد وغيرها من صور تلك الابتلاءات، لكنه لم يخصص دراسته بابتلاءات الرسول ﷺ وإن كان قد تطرق لكثير منها لكن دون تفصيل.

مشكلة الدراسة:

فتكمن في قلة الدراسات القرآنية من دراسة متخصصة للابتلاءات الخارجية التي تعرض لها النبي ﷺ إثر جهره بدعوته وأثر تلك الابتلاءات على شخصية الداعية وانعكاساتها على سلوكه وحياته. كما أن هذه الدراسة تهدف للإجابة على الأسئلة الآتية:

- ١- هل عالج القرآن الكريم موضوع ابتلاءات الرسول ﷺ بالتفصيل؟
- ٢- ما القيم التربوية التي يمكن استنباطها من ابتلاءات الرسول ﷺ الخارجية، لإسقاطها على واقع داعية اليوم؟
- ٣- كيف يمكن الاستفادة من ابتلاءات الرسول ﷺ في بناء شخصية الداعية المسلم؟
- ٤- ما أهمية الابتلاء والحكمة منه كسنة من سنن الله في الدعوات؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة، في أنها تتناول الابتلاءات والمحن في حياة النبي ﷺ والتي جاءت عقب جهره بدعوته، وتبحث في صورها في مكة والمدينة وكيف وقف النبي ﷺ إزاءها ليخط للدعاة أحرفاً من نور تضيء لهم الطريق وتهديهم سبيل الرشاد، وتسلي القلب عن كل مبتلى مهماً بلغ الابتلاء فيه. وتبرز هذه الدراسة اهتمام القرآن بموضوع الابتلاء بشكل عام وابتلاءاته ﷺ بشكل خاص، لا سيما الخارجية منها. ويرجى من هذه الدراسة أن تسهم في بناء شخصية الداعية من خلال دراسة تلك الابتلاءات وصورها وربطها بالواقع لأخذ الدروس والعبر منها.

وقد عملت هذه الدراسة على توضيح منهج القدوة الحسنة لرسول الله ﷺ في ابتلائه والتأسي بصبره واحتسابه وثباته.

منهج البحث:

تمثل الباحث في الدراسة المنهج الاستقرائي ثم المنهج الوصفي فجمع الآيات المتعلقة بالدراسة وصنفها حسب دلالاتها وصورها، والتي بدورها وصفت واقعاً عاشه النبي ﷺ بتفاصيله كافة، ليستخلص فيما بعد ما وراء ذلك من آثار ومعاني ولفقات دعوية وعبر وعظات تلهم النفس وتدفعها للعمل الجاد والعزيمة النابضة.

واعتمد الباحث في الدراسة على كتب التفسير بدرجة أساسية ومن ثم على الصحيحين والسنن بدرجة ثانية، ثم ما كتبه العلماء من أقوال ولفقات تخدم موضوع الابتلاءات. وقام بعزو هذه الأحاديث النبوية إلى مصادرها ذاكراً اسم الكتاب والباب ورقم الحديث أسفل الورقة، وعزو تلك الأقوال أيضاً إلى مصادرها والإشارة إليها أسفل كل صفحة حرصاً على الأمانة العلمية.

وقام الباحث بشرح بعض الكلمات الغريبة وذلك عن طريق الاستعانة بكتب المعاجم واللغة. ووضعت فهرس علمية في آخر الرسالة ليسهل الاستفادة منها.

خطة الدراسة:

تتكون هذه الدراسة من مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة تتضمن أهم نتائج البحث.

الفصل الأول: معنى الابتلاء وحتميته والحكمة منه، وقد جاء في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: معنى الابتلاء

المبحث الثاني: حتمية الابتلاء

المبحث الثالث: الحكمة من الابتلاء

أما الفصل الثاني: تناول فيه الباحث صور الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول ﷺ في

القرآن الكريم، وتضمن ثمانية مباحث:

المبحث الأول: الإعراض والمعاندة

المبحث الثاني: السخرية والاستهزاء

المبحث الثالث: الإغراءات الدنيوية والمساومة على الدين

المبحث الرابع: الحرب الإعلامية

المبحث الخامس: التخويف والتهديد

المبحث السادس: الطرد والمطاردة

المبحث السابع: الحصار ومحاولة السجن

المبحث الثامن: الإيذاء الجسدي ومحاولات الاغتيال

أما **الفصل الثالث**: ذكر فيه الباحث أثر ابتلاءات الرسول ﷺ الخارجية في بناء شخصية الداعية، واقتصر على أهم هذه الآثار وقسمها إلى ستة مباحث:

المبحث الأول: الصبر والثبات

المبحث الثاني: الثقة بصحة الطريق

المبحث الثالث: استشعار معية الله

المبحث الرابع: تركيز الجهد على الهدف الرئيس وإهمال الحروب الجانبية

المبحث الخامس: التخطيط والتنظيم

المبحث السادس: اليقين بنصر الله

ثم أنهى هذه الدراسة بخاتمة أوجز فيها الحديث عن أهم النتائج التي توصل إليها، ثم أورد الباحث قائمة بالمصادر والمراجع.

وبعد، فهذا عمل متواضع، أسأل الله أن يجعله لبنة في صرح الخير، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن الشيطان ثم من نفسي.

والله من وراء القصد، وبه الهداية والتوفيق.

الفصل الأول

معنى الابتلاء وحتميته والحكمة منه

المبحث الأول: معنى الابتلاء

المبحث الثاني: حتمية الابتلاء

المبحث الثالث: الحكمة من الابتلاء

الفصل الأول

معنى الابتلاء وحتميته والحكمة منه

كثيرة هي الابتلاءات والمحن التي تواجه المؤمن في حياته، وتكشف عن حقيقة إيمانه وتعلقه بمبدئه ودعوته، وتسهم في بناء شخصيته بناءً واعياً يجعله قادراً على مواجهة التحديات بكل عزم ويقين. فما المقصود بالابتلاء؟ وما الغاية منه؟

المبحث الأول

معنى الابتلاء

لا يكاد يختلف اثنان من علماء اللغة على معنى الابتلاء وهو الاختبار، يقول ابن منظور: "بَلَا: بلوت رجلاً بلواً وبلاءً وابتليته: اخترته، وبلاه يبلوه بلواً إذا جربه واختبره.. وقد ابتليته فأبلاني أي استخبرته فأخبرني. وفي حديث أم سلمة: إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ فَارَقَنِي، فَقَالَ لَهَا عُمَرُ: بِاللَّهِ أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَتْ: لَا وَلَنْ أُبْلِيَ أَحَدًا بَعْدَكَ"^(١). أي لا أخبر بعدك أحداً.. وقال ابن الأعرابي: أبلى بمعنى أخبر، وابتلاه الله: امتحنه.. والبلاء يكون بالخير والشر"^(٢)، وقد أشار ابن فارس إلى المعنى نفسه؛ إذ إن الله تعالى "يبتلي العبد بلاء حسناً وبلاء سيئاً وهو يرجع إلى هذا لأن بذلك يُختبر في صبره وشكره"^(٣).

(١) ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند النساء. باب حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، (ط١)، ١٤٢١هـ، رقم الحديث: ٢٦٤٨٩، (ج٤٤)، ص ٩٢. حكم الألباني: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. انظر: الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. رقم الحديث: ٢٩٨٢، (ج٦)، ص ١٢٠٣.

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب. دار صادر، بيروت - لبنان. (ط٣)، ١٤١٤هـ. (ج١٤)، ص ٨٤. انظر: الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين - بيروت. (ط٤)، ١٤٠٧هـ، (ج٦)، ص ٢٢٨٥.

(٣) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر. ط ١٣٩٩هـ. مجلد ١، ص ٢٩٢-٢٩٣.

وزاد بعض علماء اللغة مثل ابن فارس والفيروزآبادي على هذا المعنى معنى آخر؛ وهو إخلاق الشيء^(١)، والربط بين المعنيين قوي ظاهر؛ إذ تؤثر الابتلاءات والمحن على المبتلى فتنتقل عليه وتجهده، وتنال من جسده ونفسه، وكأنها تبليه حتى يصير كالثوب الخلق البالي، كأنما هو شيء استعمل كثيرا، وظهر عليه أثر التعب والسفر والجهد، وهذا ما تقعه نوائب الدهر بالمرء، ولذلك جاءت الابتلاءات كنوع من الاختبار والامتحان للإيمان في القلب، وللصبر على ما أصابه، أيشكر عليها أم يكفر، أيرضى أم يسخط.

من هنا نلاحظ أن الابتلاء يكون في الخير والشر، فالابتلاء بالنصر ليس أقل من الابتلاء بالهزيمة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فالآية تقرر ذلك.

أما في الاصطلاح فلا نجد ثمة اختلافاً بين استخدام اللفظ في المعنى اللغوي واستخدامه في المعنى الاصطلاحي، فالابتلاء هو كل ما يوقعه الله عز وجل على المرء في نفسه أو أهله أو ماله من أحداث ومشاكل ليمتحنها ويختبرها فيكشف مدى إيمانها وصبرها، وهو يكون بالشدة والرخاء والخير والشر، قال تعالى: ﴿ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] "أي نختبركم بالشدة والرخاء والحلال والحرام، فننظر كيف شكركم وصبركم. وإلينا ترجعون" أي للجزاء بالأعمال^(٢).

والابتلاءات والمحن التي تعرض لها النبي ﷺ كثيرة ومتعددة، فمنها ما كان في نفسه وآل بيته ك وفاة ولده إبراهيم، و وفاة خديجة زوجه رضي الله عنها، و وفاة عمه أبي طالب، ومنها ما كان في بعض صحابته وتخليهم و انسحابهم عنه في بعض الغزوات، ومنها ما تعرض له من قومه في مكة إثر دعوته التي أخذت تشق طريقها للنضوج، ومنها ما تعرض له من سائر الأقوام كالمنافقين واليهود في المدينة المنورة.

(١) انظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة. ص ٢٩٢-٢٩٣. انظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط.

تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان. (ط٨)، ١٤٢٦ هـ. ص ١٢٦٤.

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن. تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش. دار الكتب المصرية، القاهرة. (ط٢) ١٩٦٤ م. (ج ١١)، ص ٢٨٧.

ولعل ما يعنينا في هذه الدراسة على حصر الابتلاءات والمحن التي تعرض لها النبي ﷺ والتي جاءت كردة فعل من قومه ومن المشركين والمنافقين واليهود تجاه دعوته، والتي نتجت عن طبيعة الصراع بين الحق والباطل، كيف سطرها القرآن الكريم في آياته؛ لترسم لنا لوحة مهمة من لوحات الصبر والثبات والعزة، واليقين بنصر الله، ليكون ذلك دافعاً لبناء شخصية كل داعية قد سلك طريق الأنبياء، وهذا هو ما نقصده بتلك الابتلاءات الخارجية.

المبحث الثاني

حتمية الابتلاء

يعدّ الابتلاء سنة من سنن الله في الكون، وليس ثمة شك أنه يصيب المؤمن والكافر، وإصابته للمؤمن يُعدّ ضرورة ملحة تسهم في بناء الشخصية بناءً واعياً. والدعوة الحقّة لن يقوى عودها، ويُنشر عدلها، ويعمّ نورها الأرض، إلا برجال أصفاء يحملون همها يجودون بالغالي والنفيس في سبيل سموها ورفعتها وعزتها.

والمسلم صاحب رسالة عظيمة وشاقة، يدرك بأن حياته كلها تخضع لتدابير المولى عز وجل، وهي محط اختبار له، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الملك: ١-٢]، إنه الابتلاء الذي أراده الله " لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض واستحقاقهم للجزاء على العمل {ليبلوكم أيكم أحسن عملاً}... واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه يقظاً حذراً متفتّحاً واعياً للصغيرة والكبيرة في النية المستسرة والعمل الظاهر ولا يدعه يغفل أو يلهو، كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح"^(١)، وهذا هو غاية الوجود الإنساني على هذه الحياة، وبهذا يتحقق تكريم الله _ عز وجل _ لأهل الدعوات الصابرين والجزاء الأوفى لهم.

والقرآن الكريم يعجّ بالآيات التي تؤكد على حتمية الابتلاء بوصفه مقوماً من مقومات الأمة الصابرة المحتسبة، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [١٥٥] حيث جاءت {ولنبلونكم} مشفوعة بالقسم تأكيداً على حتمية الوقوع. وقوله كذلك: ﴿لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ولعل دلالة الألفاظ في القرآن الكريم تؤكد على هذه الحتمية، فجاءت دالة من خلال استخدام اللام الموطئة للقسم، ثم نون التأكيد، ثم تخير الفعل المضارع

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت - القاهرة. ط ١٧، ١٤١٢ هـ، (ج ٨)، ص ١٨٦.

الدال على الديمومة والاستمرار {تبلون} {تسمعن} وغير ذلك كثير. إنه الابتلاء في الأموال التي أنفقوها في الجهاد، إنه الابتلاء في الممتلكات التي فقدوها بهجرتهم إلى المدينة، ثم ليس هذا فحسب بل الابتلاء بالقتل والتعذيب والجراح والأذى والضرر^(١).

ومن هنا ندرك أن الابتلاء واقع لا محالة في الأمم والشعوب، وأنه لم يستهدف أمة دون أخرى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

(١) انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد: التحرير والتنوير، الدار التونسية. تونس، ط ١٩٨٤هـ، (ج٤)، ص ١٩٠.

المبحث الثالث

الحكمة من الابتلاء

يقع الابتلاء لغايات وحكم ومقاصد يريد بها الله عز وجل، فمنها ما يحيط بها المرء ويدرك كنهها، ومنها ما قد يغفلها لضيق فهمه وقصور إحاطته بمراده سبحانه، بل إن الله عز وجل يصطفي عباده حينما يبتليهم ويخصهم بالابتلاء، قال ﷺ: "من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه"^(١)، ومعنى كلمة يُصِبْ منه: أن يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها ويمسح بها ذنوبه^(٢). والحكم من الابتلاء متعددة فمنها:

أولاً: الابتلاء ضرورة للتمكين

فقد يقع الابتلاء للجماعة المسلمة لتمحيصها من المنافقين وأصحاب الهوى، وهذا التمحيص للجماعة المسلمة يعد ضرورة ملحة لبناء الجماعة المسلمة لا سيما أنها بحاجة إلى رجال قادرين على مواجهة التحديات في خضم مقارعة الشرك والكفر التي كانت تسطو على الشعوب والعقول.

ولا يكون التمكن لأي أمة من الأمم ما لم تسبقه محنة، وما من منحة إلا وسبقها محنة، قال الشافعي: "ولا يكون التمكن إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مُكِّن، ألا ترى أن الله، عز وجل، امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مَكَّنَه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مَكَّنَه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مَكَّنَه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مَكَّنَه وآتاه ملكاً، والتمكين أفضل الدرجات"^(٣).

ومن الأمثلة الدالة على أن التمكن يأتي بعد الابتلاء، ما جاء في قصة النبي الكريم يوسف عليه الصلاة والسلام، فقبل أن يمكن الله عز وجل له في الأرض ابتلاه بضروب

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. ط ١. ١٤٢٢هـ. كتاب المرضى. باب (ما جاء في كفارة المرض). حديث رقم: ٥٦٤٥. (ج ٧). ص ١١٥.

(٢) انظر: ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: محب الدين الخطيب. كتاب المرضى. باب ما جاء في كفارة المرض، دار المعرفة _ بيروت، ط ١٣٧٩هـ، رقم الحديث: ٥٦٤٥، (ج ١٠)، ص ١٠٨. العيني، أبو محمد محمود بن أحمد: عمدة القاري شرح صحيح البخاري. دار إحياء التراث العربي - بيروت. كتاب المرضى، باب شدة المرض. رقم الحديث: ٥٦٤٥، (ج ٢١)، ص ٢١١.

(٣) الشافعي، محمد بن إدريس: تفسير الإمام الشافعي. تحقيق: أحمد بن مصطفى الفران. دار التدمرية، السعودية. ط ١. ٢٠٠٦م. باب: قال تعالى: {وكذلك مكنا ليوسف}. (ج ٢)، ص ٩٧٨.

الابتلاءات والاختبارات، فابتلاه سبحانه وتعالى بحسد إخوته، ثم برميه في الجب، ثم بالاسترقاق عند عزيز مصر، ثم كان الابتلاء بكيد النساء، ثم ابتلاء السجن وألوان الأذى فيه، وبعد كل تلك الابتلاءات خرج يوسف عليه السلام منها كما يخرج الذهب من النار صافياً نقياً، فاستحق بإذن الله أن يُمكن له في الأرض يتبواً منها حيث يشاء، فهكذا هو طريق التمكين الظاهر^(١)، فلا يتأتى إلا بعد الابتلاء والتمحيص، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۚ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦]، وهذا ما نفهمه من كلمة {كذلك} أي هذا هو الطريق؛ طريق النصر والتمكين فلا يكون إلا بالمحن والابتلاءات.

فمن اجتاز مراحل الابتلاء بالصبر واليقين واحتساب الأجر من الله، تنزل عليه النصر والتمكين بإذن الله، يقول ابن القيم رحمه الله في معرض حديثه عن قول الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، " فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتهم من بعدهم لصبرهم ويقينهم؛ إذ بالصبر واليقين تتأل الإمامة في الدين فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه، وبصبرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة وكف النفس عما يوهن عزمه ويضعف إرادته، فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة الذين يهدون بأمره تعالى"^(٢)، وهذه هي سنة الله في خلقه فلا تتبدل ولا تتغير.

ثانياً: التصفية والتمايز

ومن حكم الابتلاء للأفراد وللجماعة المسلمة التصفية والتمايز بين المؤمن الحق والمنافق الذي يظهر إيمانه ويبطن الكفر، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] : أي " ما كان الله ليدع المؤمنين {على ما أنتم عليه} من التباس المؤمن منكم بالمنافق، فلا يعرف هذا من هذا {حتى يميز الخبيث من

(١) انظر: الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، (ط٣)، ١٤٠٧هـ، (ج٢)، ص ٤٨٣.

(٢) ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين: إعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٩٩١م. (ج ٤)، ص ١٠٣.

{الطيب}، يعنى بذلك: {حتى يميز الخبيث} وهو المنافق المستسرّ للكفر {من الطيب}، وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان، بالمحن والاختبار^(١).

وهذا التمايز ضروري للمجتمع المؤمن حتى تتضح الأمور أمام الناس، وحتى لا يختلط الحق بالباطل، وحتى لا يساوي أحد بين المؤمنين والمنافقين أو المجرمين، وهذا الأمر لا يظهر إلا بعد الابتلاء والتمحيص فيكشف المؤمن من المنافق.

وليس المنافق كالمؤمن، فهو لا يقوى على الصبر والثبات، وتحمل الأذى والمشاق، ولا يوقن بأن العقوبة له ولو بعد حين، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^ط فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [سورة العنكبوت: ٢-٣]، ومن هنا ندرك أن الابتلاء لم يكن يوماً من الأيام بغضاً للمؤمنين أو كراهية لهم؛ إنما كان " تصفية لمعدنهم وإظهاراً لإيمانهم الراسخ الذي لا يتزعزع؛ لأنهم سيحملون دعوة الله إلى أن تقوم الساعة، فلا بُدَّ من تمحيصهم وتصفيتهم^(٢).

ولنا أن نتدبر ذلك في غزوة العسرة (تبوك)، عام المجاعة والحرّ وقلة العدة والعناد وبُعد المسافة، فكان عمل هذه الغزوة كالتنقية للصف المؤمن ليصفو من المنافقين ومن شاكلهم، فجاءت سورة التوبة تكشف المنافقين وتقضحهم حتى أن من أسمائها " المقشقشة المبعثرة المشردة المخزية الفاضحة المثيرة الحافرة المنكلة والمدممة؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشّش من النفاق أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها، وتحفر عنها وتقضحهم وتكلهم وتشردهم وتخزيهم وتدمم عليهم^(٣). والمتدبر لهذه السورة يرى كيف أنها عملت على تصفية الصف وتصنيف الناس في المدينة ولم تستثن أحداً، لدرجة أن ابن عباس رضي الله

(١) الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، (ج٧)، ص ٤٢٤.

(٢) الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي {الخواطر}. مطبعة أخبار اليوم. نشر عام ١٩٩٧، (ج١٦)، ص ١٠٠٢٢-١٠٠٢٣.

(٣) النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود: تفسير النسفي {مدارك التنزيل وحقائق التأويل}. تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب - بيروت - (ط١)، ١٤١٩هـ، (ج١)، ص ٦٦١. الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (ج٢)، ص ٢٤١.

عنه حين سئل عن هذه السورة قال: " التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل، ومنهم ومنهم، حتى ظنوا أنها لن تبقى أحداً منهم إلا ذكر فيها "(١).

وهذا التمايز ضروري لنجاح عمل الدعوة وارتقائها وعدم تأخرها، فخلو الصف من المنافقين يقويه ويشد من أزره، ويجعله أكثر قوة وصلابة أمام التحديات.

ومن طرق التصفية التي ظهرت في الآيات حث المؤمنين على الجهاد، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] قال الشوكاني: " أي: لنعاملنكم معاملة المختبر، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد وصبر على دينه ومشاق ما كلف به... ومعنى ونبلوا أخباركم نظهرها ونكشفها امتحاناً لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به، ومن عصى، ومن لم يمتثل "(٢).

وقصة الملاء من بني إسرائيل نموذج آخر من نماذج التصفية والتمايز، فهم الذين رغبوا بالجهاد في سبيل الله، فمحصهم الله، عز وجل، وابتلاهم ابتلاءات متتالية ليصفي صفهم وينقيه، فابتلاهم بطالوت ملكاً، " وهو من سبط بنيامين بن يعقوب، وسبط بنيامين سبط لا ملك فيهم ولا نبوة.. ولم يؤت طالوت كثيراً من المال، لأنه سقاء، وقيل: كان دباغاً "(٣)، ولهذا اعترضوا عليه، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فكان هذا الابتلاء ليصفو صف المجاهدين من أصحاب النظرة العنصرية الذين يظنون أن الخيرية والاصطفاء والتكريم الإلهي هو بحسب العائلة أو النسب أو المال، ثم جاء الابتلاء التالي بالنهر ليصفو صف المجاهدين من أصحاب الإرادة الضعيفة الخائرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن، باب، رقم الحديث: ٤٨٨٢، (ج٦)، ص ١٤٧. مسلم، ابن الحجاج: صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. كتاب التفسير، باب { في سورة براءة والأنفال والحشر}، رقم الحديث: ٣٠٣١، (ج٤)، ص ٢٣٢٢.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح القدير. دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت. ط ١، ١٤١٤ هـ. (ج٥)، ص ٤٨.

(٣) الطبري: جامع البيان. (ج٥)، ص ٣٠٦.

فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ ﴿البقرة: ٢٤٩﴾ ثم كان الابتلاء الثالث قبيل لقاء العدو ليصفو الصف من أصحاب القلوب الخائفة المترددة التي تظن أن النصر متوقف على الأسباب المادية وما تحمله أيديهم من عدة وعتاد، أو الكثرة العددية التي تراها أعينهم، وغفلوا عن معية الله وقدرته على نصرهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثالثاً: تطهير النفس وتزكيتها

ومن حِكَمِ الابتلاء أيضاً تطهير النفس وتزكيتها، إذ إن النفس البشرية بطبعها تميل إلى النزوات والمعاصي والشهوات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣]، والابتلاء عامل مهم من عوامل تنقية النفس وتزكيتها من كل ما يعثرها من شوائب، فتراها مقبلة على الله خاضعة له، من كل الشوائب التي قد تعترضها في خضم هذه الحياة المحفوفة بالشهوات والمغريات، فإذا بالعبد يتضرع إلى ربه موقناً بأن لا نجاة إلا من الله ولا راد لقضائه تعالى إلا إرادته سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢].

والابتلاء كذلك يعالج النفس من الأسقام ويطهرها تطهيراً، ولولاه " لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقد في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستقراً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه... فلولاً أنه- سبحانه- يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء، لطغوا، وبغوا، وعتوا، والله- سبحانه- إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله يستقرغ به من الأدواء المهلكة"^(١).

ويكفي المؤمن مكرمة أن خصه الله بالابتلاء ليكفر عنه خطاياهم ويرفع من درجاته ويرزقه العفو والمغفرة، قال ﷺ: "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى

(١) ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد: الطب النبوي. دار الهلال، بيروت. ص ١٤٥.

الله وما عليه خطيئة" (١)، وقال أيضاً: "ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها" (٢).

إن استشعار المؤمن لهذه الحكمة من وراء الابتلاء والمحن لهو أكبر مدعاة للصبر والتحمل؛ لتذكره ذلك الأجر الذي أعده الله له في الدنيا والآخرة جزاء صبره وتحمله، ويكفي المبتلى أن يستذكر أنه بصبره على ما يصيبه من ابتلاء سيكون يوم القيامة موضع غبطة من أهل العافية، بحيث يتمنى أهل العافية لو أصابهم ما أصابه من ابتلاء ليفوزوا بمثل ما فاز به من ثواب قال رسول الله ﷺ: "يود أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض" (٣) مما يرون من ثواب أهل البلاء" (٤).

ومن الآيات التي ذكرت حكمة تكفير السيئات بعد الابتلاءات؛ ما جاء في سورة آل عمران تعقيباً على حادثة نزول الرماة عن الجبل في غزوة أحد بعد أن نظروا لبريق المال، فثبت من ثبت، ونزل من نزل، فكيف كان بعد ذلك الامتحان والابتلاء لهم بالهزيمة والقتل الذي حل ببعض، ثم عفا الله عنهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ

(١) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة: الجامع الكبير سنن الترمذي. تحقيق: بشار عواد معروف. دار العرب الإسلامي، بيروت. ١٩٩٨م. حديث رقم: ٢٣٩٩، (ج٤)، ص ١٨٠. وقال: هذا حديث حسن صحيح. حكم الألباني: حسن صحيح. انظر: الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. رقم الحديث: ٢٢٨٠، (ج٥)، ص ٣٤٩.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب المرضى. باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأمم. تحقيق: محمد زهير بن ناصر. دار طوق النجاة. ط ١، ١٤٢٢هـ. حديث رقم: ٥٦٤٨. (ج٧)، ص ١١٥.

(٣) قرص: القرض: القطع... المقراض: واحد المقاريض انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، (ج٧)، ص ٢١٦. وعند ابن فارس: قرص: القاف والراء والضاد أصل صحيح وهو يدل على القطع. انظر: ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي: معجم مقاييس اللغة، (ج٥)، ص ٧١.

(٤) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى: السنن الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ٣، ١٤٢٤هـ. باب: ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه. حديث رقم: ٦٥٥٣. (ج٣)، ص ٥٢٦. كما روى الترمذي هذا الحديث بلفظ: يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض" انظر: الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة: سنن الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر. ط ٢، ١٣٩٥هـ. حديث رقم: ٢٤٠٢، (ج٤)، ص ٦٠٣. وقد حسنه الألباني، انظر: الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير وزياداته. المكتب الإسلامي. حديث رقم: ٨١٧٧، (ج٢)، ص ١٣٥٧.

مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ^١
وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿آل عمران: ١٥٢﴾ يقول النسفي في تأويل الآية السابقة:
"لِيَبْتَلِيَكُمْ" ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم عندها، وحقيقته ليعاملكم معاملة المختبر لأنه
يجازي على ما يعمل به العبد لا على ما يعلمه منه {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} حيث ندمتم على ما فرط منكم
من عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم {وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} بالعفو عنهم وقبول
توبتهم^(١).

ولهذا ذكر النبي ﷺ أصنافاً من الابتلاءات وبين أنها كلها تكفير للسيئات والخطايا،
فقال ﷺ: "ما يصيب المؤمن من وصب^(٢) ولا نصب^(٣) ولا سقم^(٤) ولا حزن حتى الهَمَّ يَهْمُهُ إِلَّا
كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ"^(٥).

قال ابن القيم: "توبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها،
فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولاً إذنا وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد،
فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٦) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ
عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا^٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿[التوبة: ١١٧- ١١٨]، فأخبر سبحانه أن توبته
عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم، فدل على أنهم
ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم"^(٦).

(١) النسفي، عبد الله بن أحمد: تفسير النسفي {مدارك التنزيل وحقائق التأويل}. (ج ١)، ص ٣٠١.

(٢) الوصب: الوجد والمرض. انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب. (ج ١)، ص ٧٩٧.

(٣) النصب: الإعياء من العناء. انظر: السابق. (ج ١)، ص ٧٥٨.

(٤) السقم: المرض. انظر: السابق. (ج ١٢)، ص ٢٨٨.

(٥) مسلم: صحيح مسلم. كتاب: البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة

يشاكها. حديث رقم: ٢٥٧٣. (ج ٤)، ص ١٩٩٢.

(٦) ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: مدارج السالكين بين إياك نعب وإياك نستعين. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.

دار الكتاب العربي، بيروت. ط ٣، ١٤١٦ هـ. (ج ١)، ص ٣١٩.

ولهذا ندرك السر العجيب وراء رضا المؤمن لما يصيبه الله، عز وجل، من الابتلاء؛ ذلك أنه يعلم أن الله خصه دون غيره واصطفاه على خلقه فتراه يصبر وتطمئن نفسه شاكراً لله، وهذا ما يعلمه المؤمن من قول نبيه ﷺ: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط"^(١)، وهو يعلم أنه كلما علت منزلته عند الله عز وجل زيد عليه في البلاء، فيكون هذا سبباً في طمأنينته ورضاه، فقد روي عن العلاء بن المسيب عن أبيه عن سعد قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الناس على قدر دينهم فمن ثخن^(٢) دينه اشتد بلاؤه ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة)^(٣).

قال ابن القيم في وصف سعادة المؤمن: "أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، وكيفيه من ذلك بيت الحمد الذي بني له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه، فلينظر: أي المصيبتين أعظم؟: مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد... أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها الله سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك... وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم أثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذل ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد"^(٤).

(١) الترمذي: سنن الترمذي. باب ما جاء في الصبر على البلاء. (ج٤)، ص ١٧٩. حديث رقم: ٢٣٩٦. وقد حسنه الألباني، انظر: الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. ط١، ١٤١٥هـ. ج١، ص ٢٧٦. حديث رقم: ١٤٦.

(٢) ثخن: ثخن الشيء فهو ثخين: كثف وغلظ وصلب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص ٧٧.

(٣) ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد الدارمي: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان. باب: ذكر البيان بأن المسلم كلما ثخن دينه كثر بلاؤه... تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت. (ط١)، ١٤٠٨هـ. حديث رقم: ٢٩٢٠، (ج٧)، ص ١٨٣. قال الألباني: صحيح، انظر: الألباني، محمد ناصر الدين: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان. دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة. (ط١)، ١٤٢٤هـ. حديث رقم: ٢٩٠٩، (ج٤)، ص ٤٦٤. الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة..، (ج١)، ص ٢٧٣، رقم الحديث: ١٤٣.

(٤) ابن القيم: الطب النبوي. ص ١٤٢-١٤٥.

رابعاً: المحاسبة والمراجعة

ومن حكم الابتلاء التي يغفل كثير من الناس عنها؛ محاسبة الذات والمراجعة والتقويم، وهذه حكمة خطيرة ومهمة، فمعظم الناس يلتفتون إلى الحكم السابقة من الابتلاء، وينسون أن الابتلاء في كثير من الأحيان يتضمن رسالة من الله عز وجل كي يراجع المؤمن سلوكه في هذه الحياة، ويحاسبها ويسألها عن الذنب أو الخطأ الذي كان سبباً في وقوع هذا الابتلاء به، -وهذا بالطبع لا يتعارض مع تكفير السيئات- وبهذا يكون الابتلاء رسائل تنبيه وتحذير من الله للمؤمنين أن صححوا نواياكم وعالجوا ما في قلوبكم وانظروا أين تسلكون.

وهذا ليس مقصوراً على مستوى الفرد، بل يشمل الجماعة المؤمنة، والثلة التي تتحرك بالدعوة إلى الله عز وجل، ففي كثير من الأحيان قد تقع الجماعة المؤمنة في خطأ أو زيغ، فقد تساوم في موقف من مواقف العقيدة، أو تتسرع لقطف الثمر قبل أوانه، أو تخالف قواعد الولاء والبراء أو تقصر في التخطيط والإعداد، وهنا يأتي البلاء لتقف الجماعة المؤمنة مع نفسها موقف مراجعة ومحاسبة فتعالج ما طرأ من زيغ أو خطأ أو تقصير قبل أن تستأنف المسير.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي جاءت تعقيباً على مواقف أخطأ فيها المؤمنون فوقع بهم البلاء، فجاءت الآيات لمراجعة الذات ومراجعة الجماعة ومحاسبتها، ولبیان الخطأ واستخلاص العبرة والوقوف على مكن الخلل، وخير مثال على ذلك آيات سورة آل عمران، التي جاءت تعقيباً على الخطأ الذي وقع فيه بعض الصحابة الكرام، حين خالفوا أمر رسول الله ونزلوا عن جبل الرماة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ^ط حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ^ع مِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ ^ف ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ^ط وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ^ط وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] "لِيَبْتَلِيَكُمْ" أي ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله، وترجعوا إليه، وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره، وملتم إلى الغنيمة"^(١).

(١) القاسمي، محمد جمال الدين: محاسن التأويل. تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٨هـ. (ج٢)، ص٤٢٩.

"وهو تقرير لحال الرماة. وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة، ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وانتهى الأمر إلى العصيان... وهذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم في المعركة، وهذا ما أراد الله- سبحانه- أن يعلمه للجماعة المسلمة، وهي تتلقى الهزيمة المريرة والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح... وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة لينقوها... وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها، وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها. بلا تعارض بين هذا وذاك، فكل حادث سبب، ووراء كل سبب تدبير.. من اللطيف الخبير، بأسبابها الظاهرة"^(١).

وللغاية نفسها جاءت الآيات تكرر هذا المفهوم، وهو الانشغال عن الله، عز وجل، وعن رسوله الكريم ﷺ مما يكون سبباً في الهزيمة والتخاذل والفرار، نتلمس ذلك في آيات حنين، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۖ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۖ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] "إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته"^(٢).

وما كل ذلك إلا إشارات ربانية للجماعة المؤمنة التي حملت عبء الدعوة إلى الله أن تربي نفسها وتقوم اعوجاجها، فأنت ترى كيف أن القرآن يربي النفس من داخلها ويصوب خطأها حتى لا تعود إليه مرة أخرى، وهذا يفيدنا أننا بحاجة ماسة إلى مراجعة الذات وأنفسنا وأعمالنا حتى نضع الدائرة على الخل والخطأ الذي جاء الابتلاء لينبهنا له، وهذا هو أكبر دليل على نجاح الجماعة المؤمنة، وهو تقويم العمل في السنوات الماضية ومعالجة كل تقصير برز هنا أو هناك، وتقوية نقاط الضعف وتنمية نقاط القوة وتغذيتها بكل تجربة أقدمت إليها الجماعة، عندها تكون الجماعة المؤمنة في تصور ناجح دائم وبعيدة كل البعد عن بعض صور الابتلاء التي قد تفتك بالجماعة وبأفرادها.

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج ١، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٢) السابق. ج ٣، ص ١٦١٨.

وما دام أن الله عز وجل هو خالقنا وهو مدبر أمورنا وهو مبتلينا، فإنه مما لا شك فيه بأن الخيرية كلها من الله، وما من ابتلاء إلا وحوله وما بعده من النعم الجمة التي قد لا يحصيها الإنسان، إنها الثقة بالله والتوكل عليه، واليقين بأنه سبحانه يلهمنا الصبر ويجزينا عليه.

ومن هنا يظهر لنا أن حكم الابتلاء متعددة ومتنوعة، منها ما يحيط به المرء، ومنها ما يقصر الفؤاد عن الإحاطة به، وليس ثمة شك أن المسلم مطالب بالصبر واحتساب الأجر، إذ إنه دائم الشعور بمعية الله ولطفه معه في كل صنف من أصناف الابتلاء، فتارة يتفكر في محو سيئاته وسعادته ورفع درجته عند الله، وهذا ما يجعله ثابتاً على طريقه، وتارة يتذكر صفو دعوته وضرورة إخراج الغبن والغث فيها، ما يجعل ذلك تسرية على قلبه، وتارة يتذكر الأخطاء التي وقعت وزلت بها القدم، فيسرع إلى مراجعات ضرورية لنجاح العمل وارتقائه فتجده ينشط من جديد، ويحمل الراية مع ما تبقى من إخوة صادقين، ليجددوا العمل والنية والتخطيط، عندها يكون جاهزاً للتمكين في الأرض وتحكيم شرع الله، فلا بد للداعية أن يستشعر ويستحضر في قلبه تلك الحكم من وراء الابتلاء حتى يثبت على الطريق ولا يأل جهداً في المضي قدماً نحو تحقيق الهدف والسمو به.

الفصل الثاني

صور الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول ﷺ في القرآن الكريم

المبحث الأول: الإعراض والمعاندة

المبحث الثاني: السخرية والاستهزاء

المبحث الثالث: الإغراءات الدنيوية والمساومة على الدين

المبحث الرابع: الحرب الإعلامية

المبحث الخامس: التخويف والتهديد

المبحث السادس: الطرد والمطاردة

المبحث السابع: الحصار ومحاولة السجن

المبحث الثامن: الإيذاء الجسدي ومحاولات الاغتيال

الفصل الثاني

صور الابتلاءات الخارجية في حياة الرسول ﷺ في القرآن الكريم

الابتلاء سنة من سنن الله في الكون لا تتبدل ولا تتغير، وضرورة ملحة لمرحلة التمكين والنصر، وإن سنة التدافع بين الحق والباطل باقية إلى قيام الساعة وكل له أهل وأتباع، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ونبينا الكريم ﷺ تعرض لابتلاءات كثيرة في ميادين جمّة، فابتلي ﷺ في نفسه وماله وآل بيته ودعوته، ولعل أهمها تلك الابتلاءات التي نتجت عن إعلانه لدعوته، وكيف استقبلها المشركون والكفار، وأساليبهم للصد عن دينه ومحاربتة، والتي تمثل وتظهر لنا جلياً طبيعة الصراع بين الحق والباطل.

وقد تناولت في هذا الفصل لتلك الصور ووضعتها في ثمانية مباحث، وهي كالآتي:

المبحث الأول

الإعراض والمعاندة

لم يرحب كفار قريش بدعوة النبي ﷺ منذ انطلاقتها، بل قوبلت بالرفض والعناد والإعراض والمجابهة، ولقد مورست ضد النبي ﷺ ودعوته كل أساليب الإعراض والمعاندة، فكان لها صور كثيرة ومناهج متعددة، فهي لم تقتصر على الإعراض والمعاندة بل تعدتها إلى شتى صنوف المواجهة أملاً في القضاء عليها وعلى صاحبها ﷺ.

المطلب الأول: الإعراض والمعاندة من قبل المشركين

تعج لغة الخطاب القرآني بالصور والمواقف التي مارسها المشركون ضد دعوة النبي ﷺ، والتي منها ما ظهر منذ جهر بدعوته، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: "لما نزلت: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر،

يا بني عدي» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ [المسد: ١- ٢] ﴾^(١)، وما هذا الإعراض الذي ظهر من سادة قريش إلا بمثابة إعلان الحرب على هذه الدعوة الجديدة وعلى شخص رسول الله ﷺ من أول يوم سطع فيه نورها، ومن أقرب الناس إليه.

ورغم محاولات الإعراض والتكذيب والمعادنة نجد لغة الخطاب تعتمد إلى استخدام الألفاظ الترغيبية البعيدة عن الغلظة، فلنلاحظ اللفظ (تعالوا) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، ولعل في ذلك محاولة ليقظة الضمير وإحياء لجذوة التفكير عندهم؛ لعلمهم يتركون ما هم عليه من تقليد أعمى لأبائهم من طرائق ومسالك باطلة، ويُقدمون إلى دين الله وشرعه بعمل ما أوجبه وترك ما حرمه، ولهذا عاب عليهم القرآن اتباع الباطل والجهل حتى لو صدر من آبائهم، فالقرآن يرفض التقليد الأعمى الذي يسوق إلى الجهل والخسران ويعطل العقل والفكر.

وكيف لا، وقد وهبهم الله عقلاً يفكرون فيه، وعيوناً يبصرون بها، يستدلون بهما إلى طريق الحق والتوحيد المتمثلة في عبادة الله وحده ودحض كل ما يعبد من دونه، قال سبحانه تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل^(٢) ففته فقال: يا محمد أبيعث الله هذا بعد ما أرم؟ قال: «نعم، يبعث الله هذا، يميئك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم» قال: فنزلت الآيات ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧] إلى

(١) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب وأنذر عشيرتكَ الأقربين. حديث رقم: ٤٧٧٠. ج ٦، ص ١١١.

(٢) عظم حائل: أي مُتَغَيَّر قَدْ غَيَّرَ الْبَلَى، وكلُّ مُتَغَيَّرٍ حَائِلٌ. انظر: ابن منظور: لسان العرب. ج ١١، ص ١٨٨.

آخر السورة^(١). وقال الطبري في تأويل هذه الآية: "وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ليس: [٧٨] يقول: ومثل لنا شبيهاً بقوله: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ إذ كان لا يقدر على إحياء ذلك أحد، يقول: فجعلنا كمن لا يقدر على إحياء ذلك من الخلق {ونسي خلقه} يقول: ونسي خلقنا إياه كيف خلقناه، وأنه لم يكن إلا نطفة، فجعلناها خلقاً سوياً ناطقاً، يقول: فلم يفكر في خَلْقِنَاهُ، فيعلم أن من خلقه من نطفة حتى صار بشراً سوياً ناطقاً متصرفاً، لا يعجز أن يعيد الأموات أحياء، والعظام الرميم بشراً كهيئتهم التي كانوا بها قبل الفناء يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {قل} لهذا المشرك القائل لك: من يحيي العظام وهي رميم {يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} يقول: يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئاً {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} يقول: وهو بجميع خلقه ذو علم كيف يميت، وكيف يحيي، وكيف يبدي، وكيف يعيد، لا يخفى عليه شيء من أمر خلقه^(٢).

وليس عنا ببعيد، فقد سمع القرآن فرق قلبه، ثم نأى بنفسه بعيداً عن الإيمان كبراً وعناداً وغروراً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١٨-٢٦] عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرضَ لما قبله قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: قل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له قال: وماذا أقول «فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته» قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: " هذا سحر

(١) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین. کتاب التفسیر، باب تفسیر سورة یس. رقم الحديث: ٣٦٠٦، (ج٢)، ص ٤٦٦. قال الحاكم:

هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. تعليق الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج١٩)، ص ٤٨٨.

يؤثر يآثره من غيره فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر: ١١]^(١)، فتجده قد أصرَّ على

كفره وضلاله بعد أن أدرك حقيقة القرآن وصدقته، وأنه ليس بكلام بشر، وقد أخذ بمدحه والثناء عليه بكلام رائع فأبي عناد وإعراض أكثر من هذا! قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ [المدثر:

١٦] " كفوراً بآيات الله جحوداً بها معانداً لها"^(٢)، وبسبب عناده وإعراضه استحق عذاب الله عز وجل: ﴿ سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا ﴾ [المدثر: ١٧] بمعنى: "سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له منها"^(٣).

والقرآن الكريم يزخر بالصور التي تظهر لنا مدى إعراضهم عن الحق؛ فتارة يصورهم بالحرر الوحشية المذعورة الخائفة التي يلاحقها رام أو أسد، كل ذلك في صورة مفعمة بالحركة وكأن مشهد فرارهم من الحق وإعراضهم عن القرآن يمتثل أمام ناظرينا، قال تعالى: ﴿ فَمَا هُمْ عَنْ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ ﴿ فَكَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] قال الزمخشري: "شبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه، بحرر جدت في نفارها مما أفرعها. وفي تشبيههم بالحرر: مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين"^(٤).

وتارة يصور القرآن لنا مشيتهم بالخيلاء والتبخر وهم معرضون عن دعوة الحق، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ [القيامة: ٣١-٣٣]، ومعنى يتمطى: "أي: يتبختر، ومشية المُطِيطَاء هي مشية التَّبَخُّثُر. وقيل: هو أن يولي مطاؤه، والمطا الظَّهْر... وقيل: التَّمْطِي: هو التمدد من كسل أو مرض، فأما من المَرَضِ فَهُوَ غير مَذْمُوم، وأما من الكسل إِذَا كَانَ تَنَاقُلًا عَنِ الْحَقِّ فَهُوَ مَذْمُوم"^(٥)، وبسبب هذا التكاثر والتناقل عن

(١) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین. کتاب التفسیر. باب تفسیر سورة المدثر. حدیث رقم: ٣٨٧٢. (ج ٢)، ص ٥٥٠. قال الحاكم:

حدیث صحیح الإسناد علی شرط البخاری ولم یخرجاه. تعلیق الذهبي: علی شرط البخاری.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج ٢٣)، ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٣) الخازن: لباي التأويل في معاني التنزيل. (ج ٤)، ص ٣٦٤.

(٤) الزمخشري: الكشاف. (ج ٤)، ص ٦٥٦.

(٥) السمعاني، منصور بن محمد المروزي: تفسير القرآن. المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض

- السعودية، (ط ١) ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م. (ج ٦)، ص ١٠٩.

قبول الحق استحق التهديد والوعيد، فقال تعالى: ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤] وعن ابن عباس رضي الله عنهما "﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤] قال: أبو جهل بن هشام" (١).

وكأننا بهم، وهم يتجمعون حول النبي ﷺ على شكل حلقات ليس رغبة في الاستماع للحق بل بغضاً وإعراضاً واستهزاءً به، وهروباً من قبول الحق وسماعه، فقال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۖ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦-٣٧] "أي ما بال هؤلاء الكفار حواليك أيها النبي مسرعين إلى الكفر والتكذيب والاستهزاء بك، وتراهم عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن شماله جماعات متفرقة، شاردين فرقاً فرقاً، وشيعاً شيعاً، فارين منه، متفرقين عنه ... وقيل: مهطعين: مادي أعناقهم، مديمي النظر إليك" (٢).

والقرآن الكريم يبين لنا سذاجة أولئك المعرضين وسخافة تفكيرهم في طلبهم من النبي ﷺ أن يوقع بهم العذاب وينزل بهم النقم إن كان صادقاً فيما يدّعي، والآيات في ذلك كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسْتََعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۖ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، كيف لا وهم الذين كانوا يستعجلون النبي ﷺ بالعذاب رداً على شركهم وتكذيبهم إياه، ولذا فقد وقى الله وعده فقتلهم يوم بدر (٣).

وعن أنس بن مالك قال: "قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب اليم. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣-٣٤]" (٤).

(١) المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد: الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج به البخاري ومسلم في صحيحهما. باب موسى بن أبي عائشة. دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهب. دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت-لبنان. (ط٣) ١٤٢٠هـ. حديث رقم: ٤١٣. ج ١٠، ص ٣٨٧.

(٢) الزحيلي، وهبة بن مصطفى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. دار الفكر المعاصر، دمشق. ط ٢ سنة ١٤١٨هـ. (ج ٢٩)، ص ١٢٨.

(٣) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج ١٨)، ص ٦٥٨.

(٤) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾. حديث رقم: ٤٦٤٨، (ج ٤)، ص ٦٢.

وبسبب مكرمهم وقلة أدبهم مع الله تعالى ورسوله، هددهم الله بوقوع العذاب عليهم والانتقام منهم أشد الانتقام؛ جزاء كفرهم وإعراضهم، قال تعالى: ﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٥]، يقول الزمخشري: "كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكديباً ... وَلَوْلَا أَجَلٌ قَدْ سَمَاهُ اللَّهُ وَبَيْنَهُ فِي اللُّوحِ لِعَذَابِهِمْ، وَأُوجِبَتِ الْحِكْمَةُ تَأْخِيرُهُ إِلَى ذَلِكَ الْأَجَلِ الْمُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ عَاجِلاً. والمراد بالأجل: الآخرة، لما روى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا يَعْذِبَ قَوْمَهُ وَلَا يَسْتَأْصِلَهُمْ، وَأَنْ يُؤَخَّرَ عَذَابُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وقيل: يوم بدر. {لَمُحِيطَةٌ} أي ستحيط بهم {يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ}... {مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}"^(١).

وفي موضع آخر وعدهم الله بالقتل وضرب الأعناق وتقطيع الأطراف؛ جزاء معاداتهم ومعاندتهم وإعراضهم، قال تعالى: ﴿سَأَلِقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلٌّ بِنَانٍ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ١٢-١٣]، يقول الطبري في تأويل هذه الآية: "يعني تعالى ذكره بقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ} ، هذا الفعل من ضرب هؤلاء الكفرة فوق الأعناق وضرب كل بنان منهم، جزاء لهم بشقاقهم الله ورسوله، وعقاب لهم عليه. ومعنى قوله: {شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ، فارقوا أمر الله ورسوله وعصوهما، وأطاعوا أمر الشيطان. ومعنى قوله: {وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ، ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله ففارق طاعتهما، {فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} له. وشدة عقابه له: في الدنيا، إحلاله به ما كان يحل بأعدائه من النقم، وفي الآخرة، الخلود في نار جهنم"^(٢).

وهكذا تجلت صور إعراض كفار قريش ومعاندتهم، أملاً منهم في صد الناس عن دين الله، عز وجل، ولكنهم خابوا وخسروا، فدعوة الله محفوفة بحفظ الله سبحانه، ورسوله ﷺ في مأمن من مكرمهم، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

(١) الزمخشري: الكشاف. (ج٣)، ص ٤٦٠.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج١٣)، ص ٤٣٣.

وليس ثمة شك أن النبي ﷺ كان يحزن حزناً شديداً ويشفق عليهم ويخاف أن يحل بهم العذاب، ولهذا كله فقد اعتبرنا الإعراض والمعاندة من ضروب الابتلاء التي مر بها النبي ﷺ لما ترتب على هذا الإعراض وما نتج عنه وما شكّله على شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقلبه من الحزن والضيق الذي كان يصيبه عند إعراضهم.

ولهذا جاءت الآيات القرآنية تواسي رسول الله وتنهاه أن يبلغ به الحزن ما بلغ، فانه سبحانه وتعالى يطلب منه أن لا يهلك نفسه حسرة وحزناً لإعراضهم وكفرهم به وبدعوته وتكذيبهم إياه، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

المطلب الثاني: الإعراض والمعاندة من قبل اليهود

لم تكن حال النبي ﷺ في المدينة بعيدة عن حاله في مكة؛ حيث جاءت الآيات لتصور لنا إعراض اليهود والمنافقين وعنادهم لدعوته ﷺ، فهم موقنون أن النبي ﷺ جاء ليسلبهم ملكهم الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، ورغم علم يهود بنبوته ﷺ ومعرفتهم المعرفة الكاملة لوصفه وسمته إلا أنهم أنكروا وبشدة هذه النبوة، وعمدوا إلى معارضتها ومحاربتها بكل ما أوتوا من قوة، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۚ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] أي "يعرفون أن الإسلام دين الله وأن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل"^(١)، ولهذا كان اليهود يعلمون مقدم رسول الله ﷺ ويعرفون صفاته ونعته كما ذكر ذلك في كتبهم، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] روى البخاري في صحيحه، "عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "أن هذه الآية التي في القرآن: {يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥]، قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحزناً للأميين، أنت عبي

(١) السابق. ج ٩، ص ١٨٧.

ورسولي، سميئك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب^(١) بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً^(٢)، ولهذا كانوا واثقين بقدم هذا النبي ظانين أنه سيكون من ذرية إسحاق لا من ذرية إسماعيل، ولهذا كانوا يهددون المشركين من العرب بقدمه ليقتلهم ويعذبهم، قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ^٣ فَلَعَنَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] "كانت اليهود تستفتح بمحمد صلى الله عليه وسلم على كفار العرب من قبل، وقالوا: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده في التوراة يعذبهم ويقتلهم. فلما بعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) فرأوا أنه بعث من غيرهم كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة"^(٣)، فما أنكروا رسالته إلا جحوداً وكبراً وحسداً له.

وما إيمان بعض علمائهم مثل عبد الله بن سلام إلا حجة عليهم، وما اعترافه برسالة الإسلام إلا إثباتاً لبطلان حجتهم في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا^٤ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] "قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يعني: كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر اليهود. ويقال: يعني، أهل مكة ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يقول: كفى بالله شاهداً بيني وبينكم على مقاتلتكم ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يعني: ومن آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، وأصحابه شهوداً بيني وبينكم لأنهم وجدوا نعتهم وصفته في كتبهم"^(٤).

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِمْ فَقَامَ فَعَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ^٥ إِنْ أَلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠] روى البخاري في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: "ما سمعت النبي

(١) السخب والصخب بمعنى الصياح. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ١)، ص ٤٦٢.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن، باب {إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً}. حديث رقم: ٤٨٣٨. (ج ٦)، ص ١٣٥.

(٣) الطبري: جامع البيان. (ج ٢)، ص ٢٣٩.

(٤) السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد: بحر العلوم. (ج ٢)، ص ٢٣٢.

صلى الله عليه وسلم، يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام " قال: وفيه نزلت هذه الآية ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ [الأحقاف: ١٠] الآية، قال: «لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث»^(١). ومما لا شك فيه أن من أعظم صور الإعراض عن الحق ومعاندته، أن تعرف الحق ثم تتكره ولا تتبعه، وهذا هو حال يهود. وبسبب مخالفتهم لأمر الله ورسوله وإنكارهم بعثته ثم تأمرهم عليه وعلى دعوته ومحاولة اغتياله والغدر به، رغم علمهم ومعرفتهم به، استحقوا عذاب الله لهم في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وضرب لنا القرآن مثلاً من يهود بني النضير، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهم فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٣-٤] "هذا الذي فعل الله بهؤلاء اليهود ما فعل بهم من إخراجهم من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم من المؤمنين، وجعل لهم في الآخرة عذاب النار بما فعلوا هم في الدنيا من مخالفتهم الله ورسوله في أمره ونهيهِ، وعصيانهم ربهم فيما أمرهم به من اتباع محمد ﷺ. {وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} يقول تعالى ذكره: ومن يخالف الله في أمره ونهيهِ فإن الله شديد العقاب"^(٢).

ولعل من أعظم صور الإعراض عن الإيمان بنبوته محمد ﷺ؛ هو إنكارهم لبعثته وكتمانهم الحق الذي علموه في كتبهم من وصفه ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١] أي "يكتُمون شأن محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل"^(٣) وفي آيات أخرى يأمرهم الله عز وجل بأن يوفوا بالنذر وبالعهد الذي قطعه عليهم، قال تعالى: ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَآرْهَبُونَ ﴾ [البقرة: ٤٠] فالعهد الذي قطعه الله على بني إسرائيل هو "عهد الله ووصيته التي أخذ على بني إسرائيل في التوراة، أن يبينوا للناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول، وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة أنه نبي الله، وأن

(١) البخاري: صحيح البخاري. كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام. رقم الحديث: ٣٨١٢، (ج٥). ص ٣٧.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج ٢٢)، ص ٥٠٦.

(٣) السابق. (ج ٥)، ص ٤٩٤.

يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله. "أوف بعهدكم": وعهده إياهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة"^(١).

ولهذا عدّ القرآن الكريم أن كتم الحق وعدم إظهاره للناس هو من أعظم أنواع الظلم الذي مارسه اليهود عندما أخفوا أمر النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠] يقول البغوي: " { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ } أخفى { شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ } وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين وأن محمداً ﷺ حق ورسول أشهدهم الله عليه في كتبهم، { وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } "^(٢)

ولهذا كان يدعوهم النبي ﷺ للإيمان به وبالكتاب الذي أنزل إليه من ربه؛ لعل قلوبهم تصحو من غفلتها، ويتذكرون أمر ربهم وميثاقه الذي واثقهم به وعهده الذي عاهدهم بتطبيقه وتنفيذه، لكنهم قابلوه بالرفض والإعراض وكانوا يكتفون بالإيمان بكتبهم التي أنزلت عليهم، والكفر بالقرآن الكريم الذي وافق التوراة قبل تحريفها وصدق ما فيها، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩١]^(٣).

فلا غرابة من تعامل اليهود مع النبي ﷺ وإعلان محاربتة والصد عن دينه فهذا هو حالهم ومكرهم وتعاملهم مع أنبياء الله، فهم قتلة الأنبياء والمرسلين، وقد سلخوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مسلكتهم مع الأنبياء السابقين، فلم يكن الزمان كفيلاً بتغيير طباعهم الخبيثة النجسة، فبقوا على ما هم عليه من العناد والخبث والإعراض والاستهزاء والمكر بأنبياء الله عليهم الصلاة والتسليم، رغم أنهم أقرب إلى المؤمنين من المشركين؛ لأنهم قد نزل عليهم الكتب السماوية، وأرسل الله لهم الأنبياء فعلموا حالهم وصنيعهم في قلوب الأمة، فهم ليسوا كمشركي قريش الذين لم تدركهم نبوة من النبوات قبل محمد ﷺ لتقريبهم إلى الإيمان والتوحيد.

(١) الطبري: جامع البيان. (ج ١)، ص ٥٥٧.

(٢) البغوي، الحسين بن مسعود: معالم التنزيل في تفسير القرآن. المحقق: عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي - بيروت،

(ط ١) ١٤٢٠ هـ، (ج ١)، ص ١٥٨.

(٣) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج ٢)، ص ٣٤٨.

فرغم كل تلك المعطيات الدالة على الإيمان والتسليم لدين الله إلا أنهم أنكروا دينه، وعاندوه وأعرضوا عنه، وناصبوه العداً ودعوته، وتآمروا عليه مع المشركين والمنافقين؛ للنيل من شخصه صلى الله عليه وسلم ودعوته وأتباعه، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢] يقول ابن عطية في تفسيره: "قال القاضي أبو محمد: وهذا خبر مطلق منسحب على الزمن كله وهكذا هو الأمر حتى الآن، وذلك أن اليهود مرنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم ودربوا العتو والمعاصي ومردوا على استئثار اللعنة وضرب الذلة والمسكنة، فهم قد لجت عداوتهم وكثر حسدهم، فهم أشد الناس عداوة للمؤمنين وكذلك المشركون عبدة الأوثان من العرب والنيران من المجوس"^(١)، ولهذا كله فقد أدرك النبي ﷺ تلك العداوة والحدق من هؤلاء على دعوته وتريصهم به كل حين، وأنه ليس من السهل قبول دعوته والرضا بها، ولذا فما فتى إلا أن أجلاهم وطردهم عن المدينة المنورة؛ ليتخلص من شرورهم وأذاهم وخيانتهم، وليقطع الاتصال بينهم وبين من عاونهم من المنافقين، وبهذا تخلو المدينة من هذا الشر المحقق بها، ويتفرغ لنشر الدعوة.

المطلب الثالث: الإعراض والمعاندة من قبل المنافقين

لم يكن موقف المنافقين في المدينة تجاه دعوة محمد ﷺ أقل شأناً من موقف يهود، بل كانت أقوى وأوقع في دعوته ﷺ، لا سيما أن أولئك كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، فهم أمام العوام من أتباعه ﷺ ومناصريه وفي باطنهم أشد حقداً وغلاً عليه وعلى دعوته، وما حسبوا أن الله قد توعدهم بكشف خباياهم وزيف ضمائرهم وخبث نواياهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَهُمْ﴾ [محمد: ٣٠] أم حسب هؤلاء المنافقون أن لن يظهر الله ويبرز أحقادهم ويغضهم وعداوتهم للنبي ﷺ ودعوته ومن آمن معه^(٢). بل سيبيديه للمؤمنين حتى يعرفوا نفاقهم وخبثهم وكذبهم.

(١) ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار

الكتب العلمية - بيروت، (ط١) ١٤٢٢ هـ. (ج٢)، ص ٢٢٥.

(٢) انظر: الواحدي: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ص ١٠٠٤.

وداء النفاق يحقق للمنافقين كل المصالح والفوائد، فهم يحقنون دماءهم به؛ لأن إظهار الكفر وعلانية العداء والإعراض عن دين الله لا يحقق لهم الأمن والأمان، ثم الفوائد المادية التي تتحقق من هذا النفاق سيما بعد النصر والظفر الذي بدأ يتحقق على يد المسلمين في قتالهم وجهادهم للمشركين، فكان المنافقون يطمعون بما تجنيه تلك المعارك من مغانم. ولهذا لم يظهروا الإعراض والمعاندة لدين الله، بل لجؤوا إلى النفاق الذي يفرض عليهم القيام ببعض الشعائر التعبدية لإخفاء نفاقهم.

لكن حال النفاق الذي هم عليه لا يستمر طويلاً، بل سرعان ما يظهر ويُكشَف المكنون في نفوسهم الخبيثة خاصة عندما يأتي الأمر الإلهي بتكاليف الشريعة الغراء التي يجب على المؤمن أو من أظهر الإيمان الإذعان لها، فكانت تكاليف الجهاد والسير للمعارك والاستعداد لها من أبرز أسباب كشف خباياهم وما أسرته نفوسهم من أسرار لا يطلع عليها أحد من الخلق، فانكشفت للعيان وأظهرها القرآن في صورة حية تظهر لنا مدى الرعب والخوف الذي يتخبط فيه المنافق عند نزول الآيات التي تأمر بالجهاد والقتال، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ^١ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ^ط فَأُولَئِ هُمْ لَهُمْ^ط ﴾ [محمد: ٢٠] يقول سيد قطب: "إِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ، فاصلة بينة لا تحتل تأويلاً {وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ}، أي الأمر به، أو بيان حكم المتخلفين عنه، أو أي شأن من شؤونه، إذا بأولئك {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، -وهو وصف من أوصاف المنافقين- يفقدون تماسكهم، ويسقط عنهم ستار الرياء الذي يتسترون به، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف، ويبدون في حالة تزري بالرجال، يصورها التعبير القرآني المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنظار {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} وهو تعبير لا تمكن محاكاته، ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى، وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع، والضعف إلى حد الرعدة، والتخاذل إلى حد الغشية، ويبقى بعد ذلك متفرداً حافلاً بالظلال والحركة التي تشعف الخيال، وهي صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان، ولا بفطرة صادقة، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر، وهي هي طبيعة المرض والنفاق!"^(١).

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن. (ج ٦)، ص ٣٢٩٦.

والقرآن الكريم عندما يفضح لنا أعمال هؤلاء المنافقين في المجتمع المسلم، يعرض لنا صور إعراضهم وهروبهم من شدة وطأة التكاليف الشرعية، وخاصة تكاليف الجهاد لما فيها من مشقة على النفوس وخطر على الحياة وبذل للمال، فكان ديدنهم التخلف عن الجهاد والقيود عنه الذي أثقل كاهلهم بالذنوب والمعاصي ثم فرحوا بذلك التخلف والقيود، قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨١-٨٢] يقول الزمخشري: " الْمُخَلَّفُونَ الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان بِمَقْعَدِهِمْ بقعودهم عن الغزو خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ خلفه... وقيل: هو بمعنى المخالفة لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض... أي قعدوا لمخالفته أو مخالفين له {أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} تعريض بالمؤمنين وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض. وكره ذلك المنافقون. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان" (١).

فتراهم لم يكتفوا بمعصية الرسول ﷺ وعدم طاعته للخروج في سبيل الله لقتال أعدائه، بل يفرحون بتخلفهم عنه، روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا»، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الآية (٢) {آل عمران: ١٨٨}، فالآية تتحدث عن المنافقين المتخلفين وقد نزلت فيهم بعد أن تخلفوا عن الجهاد معه، وإذا عاد النبي ﷺ من غزوه، جاءوا " واعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغال ونحو هذا، فيظهر رسول الله ﷺ القبول

(١) الزمخشري: الكشاف. (ج ٢)، ص ٢٩٦.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن، باب {لا يحسن الذين يفرحون بما أتوا}، حديث رقم: ٤٥٦٧، (ج ٦)، ص ٤٠. مسلم: صحيح مسلم. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. حديث رقم ٢٧٧٧. (ج ٤)، ص ٢١٤٢.

ويستغفر لهم، ففضحهم الله تعالى بهذه الآية، فكانوا يفرحون بما يأتونه ويفعلونه من التخلف والاعتذار، ويحبون أن يقال لهم: إنهم في حكم المجاهدين لكن العذر حبسهم^(١).

وما اختلاقم لتلك الأعذار الكاذبة إلا دليل على إعراضهم ومعاندتهم للدعوة وتكاليها، ولذا فقد ذكر القرآن لنا بعض الأعذار التي اختلقها بعض المنافقين كي يتخلفوا عن الجهاد، فقال سبحانه وتعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْتِهَا هَلْ يَظِرُّ لَنَا مَقَامَ لَكُمَّ فَارْجِعُوا^ط وَاسْتَغْنِ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ أَلَنبَى يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ^ط إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿[الأحزاب: ١٣]﴾، يعني "أن المنافقين قالوا: خوفاً ورعباً منهم: لا مقام لكم عند القتال، فارجعوا يعني: فانصرفوا إلى المدينة ويستأذن فريق منهم النبي وهم بنو حارثة وبنو سلمة، وذلك أن بيوتهم كانت من ناحية المدينة يقولون إن بيوتنا عورة يعني: ضائعة، نخشى عليها السراق. ويقال: معناه أن بيوتنا مما يلي العدو، وإنا لا نأمن على أهاليها... يقول الله تعالى: { وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ } لأن الله عز وجل يحفظها، يعني: وما هي بخالية، { إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا } أي: ما يريدون إلا فرارا من القتال^(٢)، وغير ذلك من الأعذار التي فصلتها سورة التوبة.

ولم يكتف المنافقون بإعراضهم عن الحق ومعاندتهم لرسول الله ﷺ بعدم الخروج معه للجهاد وفرحهم الشديد بذلك، بل تعداه إلى تعويق المؤمنين وتشبيطهم وتخذييلهم عن الخروج إلى القتال، ونشر الأكاذيب وبث الرعب، ولهذا كان خطرهم على الصف المسلم كبيراً، وهذا إن دلّ فإنما يدل على عظم إعراضهم ومعاندتهم للحق، فتجدهم يشجعون المؤمنين على عدم الانصياع لأوامر تلك الدعوة ومعارضتها، ولكن كان القرآن لهم بالمرصاد كاشفاً لمآربهم الخبيثة وكلامهم المعسول الذي اختلط بالسّم والأذى، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا^ط وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨] يقول الطبري: "قد يعلم الله الذين يعوقون الناس منكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصدونهم عنه، وعن شهود الحرب معه نفاقاً منهم وتخذيلاً عن الإسلام وأهله {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} أي تعالوا إلينا، ودعوا

(١) ابن عطية: المحرر الوجيز. (ج ١)، ص ٥٥٢.

(٢) السمرقندي: بحر العلوم. (ج ٣)، ص ٥١.

محمداً، فلا تشهدوا معه مشهده، فإننا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه {وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا} يقول: ولا يشهدون الحرب والقتال إن شهدوا إلا تعذيراً ودفعاً عن أنفسهم المؤمنين^(١).

وليس بعيداً عنا ما حدث في غزوة أحد فهي تظهر لنا الصورة جلية، فكان هروب المنافقين وانسحابهم وتشجيع الناس للحاق بهم وترك النبي ﷺ، مما أدى إلى اختلاف الصحابة في أمر هؤلاء المنافقين، روى البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: " لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد، رجع ناس ممن خرج معه، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فرقتين: فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨] وقال: «إنها طيبة، تنفي الذنوب، كما تنفي النار خبث الفضة»^(٢).

ومن صور إعراض المنافقين كذلك الاستكبار ورفض الدعوة، فبعد أن دعاهم للإيمان ونبذ النفاق وطاعة الله ورسوله لعله يفتح بذلك قلوباً عمياً وآذاناً صماً وألسناً بكماً تلهج بذكر الله وتعترف بوحدانيته والتسليم له، ولكنهم قابلوا الدعوة بالرفض والإعراض استكباراً واستهزاء، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥] يقول الطبري في تفسيره: "وإذا قيل لهؤلاء المنافقين تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم لوؤا رءوسهم، يقول حرّكوها وهزّوها استهزاء برسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وباستغفاره... ووقوله: {وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} يقول تعالى ذكره: ورأيتهم يُعرضون عما دُعوا إليه بوجوههم {وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} يقول وهم مستكبرون عن المصير إلى رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليستغفر لهم"^(٣)، فبدل أن يوافقوا على دعوة رسول الله لهم والفوز ببركة دعائه في تصويب فكرهم، وإرشادهم لما لهم فيه خير الدنيا والآخرة، قابلوا ذلك بالإعراض والغفلة والاستهزاء.

ولعل من أبرز صور إعراض المنافقين ومعادنتهم لدين الحق تأمرهم مع يهود، حيث أمدهم بأخبار المسلمين لإضعاف وحدة المجتمع المؤمن والقضاء عليه، وقد فضح القرآن الكريم

(١) الطبري: جامع البيان. (ج ١٩)، ص ٥٠.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب المغازي. باب غزوة أحد. حديث رقم: ٤٠٥٠. (ج ٥)، ص ٩٦. مسلم: صحيح مسلم. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. حديث رقم: ٢٧٧٦. (ج ٤)، ص ٢١٤٢.

(٣) الطبري: جامع البيان. (ج ٢٣)، ص ٣٩٧.

التعاون الأمني والسري بينهم، تمثل ذلك في غزوة بني النضير، قال الله تعالى: ﴿لَيْنٌ أُخْرِجُوا لَا تَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ [الحشر: ١٢]، يقول الطبري: "عن ابن عباس {يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} يعني: بني النضير، وقوله: {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} يقول: لئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم، وأُجليتم عنها لنخرجن معكم، فنجلى عن منازلنا وديارنا معكم، وقوله: {وَلَا نَطِيعُ أَحَدًا أَبَدًا} يقول: ولا نطيع أحداً سألنا خذلانكم، وترك نصرتكم، ولكننا نكون معكم، {وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ} يقول: وإن قاتلكم محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه لننصرتكم معشر النضير عليهم، وقوله: (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) يقول: والله يشهد إن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير النصر على محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَكَاذِبُونَ) في وعدهم إياهم ما وعدوهم من ذلك"^(١)، ولاحظ التعبير القرآني في كلمة "يقولون لإخوانهم" والذي يظهر لنا ملامح العلاقات الأخوية والمودة بين قوى الكفر، ولهذا "ذكر الله تعالى أحوال العلاقات المشبوهة بين المنافقين واليهود، فقد كان المنافقون في الظاهر من الأنصار، ولكنهم كانوا يوالون اليهود في السر، فصاروا إخوانهم في الكفر، وأصدقاءهم في معاداة المؤمنين"^(٢).

ولهذا كان النبي ﷺ يحزن كثيراً لإعراض المنافقين وعدم إيمانهم واستهزائهم، ولعل هذا الحزن كان يثقل كاهل النبي ﷺ ويؤذيه، ولهذا اعتبرنا إعراضهم ضرباً من ضروب ابتلاء النبي ﷺ وما نتج عنه من حزن وألم ألم به، ولأن هذا الابتلاء كان شديداً على رسول الله ﷺ فقد جاءت الآيات لتسري عن رسول الله وتذهب الحزن عن قلبه؛ ليمضي قدماً في تحقيق رسالته، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، يقول الزمخشري: " { يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ } يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشدَّ رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام. فإن قلت: فما معنى قوله: { وَلَا تَحْزَنْكَ } ؟ ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ قلت: معناه: لا يحزنوك لخوف أن يضروك ويعينوا عليك. ألا ترى إلى

(١) الطبري: جامع البيان. (ج ٢٣)، ص ٢٩٠.

(٢) الزحيلي، وهبة بن مصطفى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. دار الفكر المعاصر، دمشق. ط ٢ سنة ١٤١٨ هـ. (ج ٢٨)، ص ٩٦.

قوله: { إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا } يعنى أنهم لا يضرّون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: { يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ } أي نصيباً من الثواب وَلَهُمْ بدل الثواب عَذَابٌ عَظِيمٌ وذلك أبلغ ما ضرّ به الإنسان نفسه. ^(١).

وبهذا فقد جلى القرآن الكريم لنا موقف قوى الكفر والضلال من دعوة الرسول ﷺ، والذي تمثل بعناد تلك الدعوة ومعارضتها بشتى الطرق والوسائل، رغم كل المعجزات الدامغة والبراهين الدالة على صدق دعوته ﷺ، فبدأ الإعراض والمعادنة على يد قريش حيث مسقط رأس الدعوة في مكة المكرمة، وقد علموا صدقه وأمانته إلا أنهم أنكروا دعوته وحاربوه، ثم جاء الإعراض والمعادنة على يد اليهود الذين كانوا يقطنون المدينة رغم معرفتهم بالنبي ﷺ الذي جاء وصفه ونعته في كتبهم المقدسة، ورغم إيمان بعض أحبارهم من أمثال عبد الله بن سلام (رضي الله عنه)، إلا أنهم أصروا على الإعراض والمعادنة لتلك الدعوة، ثم اكتمل دور الإعراض والمعادنة ليتم على يد المنافقين الذين عاشوا مع المسلمين وسمعوا من رسول الله ﷺ، وتبين لهم صدق دعوته ومعجزاته، وصدق أتباعه وإيمانهم العميق بتلك الدعوة الغراء، ثم فضح القرآن أعمالهم ونواياهم وتأمّروهم ضد المسلمين، فرغم كل ذلك أصروا على عنادهم لدعوته ﷺ واستهزأهم بها وعدم الإيمان به.

كل ذلك من الانصراف عن دعوة الله وعدم الإيمان بها كان يحزن قلب النبي ﷺ، فتأتي الآيات لتهون عليه وتخفف عنه وتشعره بمعية الله وقربه منه سبحانه.

(١) الزمخشري: الكشاف. (ج ١)، ص ٤٤٣.

المبحث الثاني

السخرية والاستهزاء

من الأساليب التي اتبعها المشركون في مجابهة الرسول ﷺ ودعوته، وقد استعملوه بعدما عجزوا عن مجابهة الحق بالبرهان والدليل، عندها لجؤوا إلى هذا الأسلوب المهين وهو موقف الإنسان الضعيف الذي لا يملك الرد والدليل فينتقل من منهج الحوار الموضوعي إلى أسلوب الاستهزاء الشخصي وهذا لا ينم إلا عن عجز عن المواجهة وفقدان الأدلة والأدوات ورفض الإقرار بالهزيمة والإذعان للحق ولهذا تجده يحاول إخفاء ذلك بكل ألوان الشبهات التي يترك لها العنان ليقنع من في صفه، لكنها في الحقيقة الهزيمة النكراء أمام سطوع نور الحق وأدلته الدامغة.

واستعمال الكفار لهذا الأسلوب كان رغبة منهم في صد الناس عن دعوته ﷺ وهي سنة في جميع الأمم والشعوب، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠] يقول الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مسلماً عنه بوعيده المستهزئين به عقوبة ما يلقي منهم من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هَوْنٌ عليك، يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفّين بحقك فيّ وفي طاعتي، وامنض لما أمرتك به من الدُّعاء إلى توحيدِي والإقرار بي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيِّهم، وأصرُّوا على المقام على كفرهم، نسلِك بهم سبيلَ أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النقمة" (١).

وقد بين القرآن الكريم أن السخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ ودعوته، جاءت من طرف المشركين واليهود والمنافقين، كما سيتم بيانه في المطالب الآتية:

المطلب الأول: السخرية والاستهزاء من قبل المشركين

ففي مكة ومنذ أن أعلن النبي ﷺ عن دعوته الجديدة سارع المشركون إلى الاستخفاف بهذه الدعوة وإثارة الشبهات حولها، حيث بدأ الاستخفاف بشخص النبي ﷺ والمراد دعوته، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان: ٤١] "يعني ما

(١) الطبري: جامع البيان. (ج ١١)، ص ٢٧١.

يتخذونك إلا هزواً أي مهزوءاً به" ^(١)، والاستفهام في الآية يفيد معنى التقرير والاحتقار ^(٢). وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]. ففي الآيتين إخبار من الله تعالى باستهزاء المشركين من شخص النبي ﷺ وانتقاصهم منه، وهذا كان من عموم المشركين فكانوا "إذا رأوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم استهزؤوا به واستحقروه وأبعدوا أن يبعثه الله رسولاً فقالوا على جهة الاستهزاء: أهذا الذي بعث الله رسولا!" ^(٣). والاستفهام مستعمل في التعجيب، واسم الإشارة مستعمل في التحقير بقرينة الاستهزاء ^(٤).

ولهذا رفض الكفار رسالة محمد ﷺ بوصفها تنزلت على شخص لا يرونه جديراً بهذا الأمر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقد ذكر المفسرون ^(٥) عن قتادة: "قال: الرجل: الوليد بن المغيرة، قال: لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل عليّ القرآن أو على أبي مسعود الثقفي، والقريتان: الطائف ومكة، وأبو مسعود الثقفي من الطائف واسمه عروة بن مسعود" ^(٦)، ولهذا كان الرد الإلهي عليهم بأنه سبحانه وتعالى هو المتصرف في الكون والخلق كما يريد هو سبحانه لا كما يريدون هم، بلا ممانع ولا مدافع، وله الحكم والحجة ويعطي النبوة لمن يريد، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ^(٧).

ولهذا عمد القرآن الكريم إلى أسلوب الاستفهام الاستكاري؛ لتصوير حالة المشركين وموقفهم من رسول الله ﷺ واستهجانهم لنزول الرسالة عليه وأنه ليس أهلاً لها، كما نلاحظ ذلك في

(١) البغوي: معالم التنزيل. (ج ٦)، ص ٨٥.

(٢) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ١٣)، ص ٣٥.

(٣) ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (ج ٤)، ص ٢١١.

(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير. (ج ١٧)، ص ٦٦.

(٥) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج ٢٠)، ص ٥٨١. السمرقندي: بحر العلوم. (ج ٢)، ص ٦١٦. النسفي: مدارك التنزيل. (ج ٣)، ص ٢٧١.

(٦) الصنعاني، عبد الرزاق بن همام: تفسير عبد الرزاق. تحقيق: محمود محمد عبده. دار الكتب العلمية، بيروت. (ط ١) ١٤١٩ هـ. حديث رقم: ٢٧٦٢. (ج ٣)، ص ١٦٨.

(٧) انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم. المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع. (ط ٢)، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، (ج ٢)، ص ٢٩.

قوله تعالى: ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۚ ﴾ [ص: ٨] " قال الزجاج: قالوا كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا ونحن أكبر سناً وأعظم شرفاً منه" (١).

والقرآن الكريم يصور لنا حركة رؤوسهم استهزاء وسخرية وتكذيباً به ﷺ. قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَسَيُغْضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلٌّ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١]، ذكر الطبري عن قتادة: "أي يحركون رؤوسهم تكذيباً واستهزاء" (٢).

وإذا بحثنا في سبب نزول بعض الآيات نجد أن لها علاقة وطيدة بموضوع السخرية والاستهزاء، فقد روى البخاري ومسلم عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندب بن سفيان رضي الله عنه، قال: «اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين - أو ثلاثاً -، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قريبك منذ ليلتين - أو ثلاثة - فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ١-٣] (٣). فنزلت السورة رداً على استهزائهم وسخريتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما روى ابن حبان عن ابن عباس في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]، قال: "لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتوه فقالوا: نحن أهل السقاية والسدانة" (٤).

(١) الواحدي، علي بن أحمد بن محمد: الوسيط في تفسير القرآن المجيد. (ج ٣)، ص ٥٤٠.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج ١٧)، ص ٤٦٧.

(٣) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب ما ودعك ربك وما قلى. حديث رقم: ٤٩٥٠. (ج ٦)، ص ١٧٢. مسلم: صحيح مسلم. كتاب الجهاد والسير. باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين. حديث رقم: ١٧٩٧، (ج ٣)، ص ١٤٢٢.

(٤) سدن: السادن: خادم الكعبة وبيت الأصنام.. والسدانة: الحجابة... والسدنة: حجاب البيت وقومة الأصنام في الجاهلية... قال أبو عبيد: سدانة الكعبة خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه... والسدن: الستر. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ١٣)، ص ٢٠٧.

وأنت سيد أهل يثرب فنحن خير أم هذا الصنبيير^(١) المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا؟ فقال: أنتم خير منه فنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]"^(٢).

لقد أفصح لنا القرآن الكريم عن أسلوب كفار قريش في السخرية والاستهزاء بالله ورسوله وبما جاء به من كلام ربه، فقد سخروا منه ﷺ وغمزوه ولمزوه لانتقاصهم من أن يكون رسول هذه الأمة؛ لما يرون أن هناك من هو أحق بالرسالة منه، ثم سخروا من أقواله ومواعظه، ثم بلغت السخرية مبلغها في سبّه وسب ما يدعوا إليه، لكن الرسول ﷺ كان يخرج دائماً منتصراً ومتوكلاً على الله صابراً محتسباً الأجر منه سبحانه، ولهذا أكرمه الله بالنصر والرفعة والخير المنقطع له في الدنيا والآخرة.

ولم يقتصر هذا الأسلوب الخبيث على شخص رسول الله ﷺ بل تعداه إلى القلة المؤمنة فلحققتهم السخرية والاستهزاء بهم وبإيمانهم ليحاولوا بذلك زعزعة إيمانهم وتشكيكهم باعتقادهم لترك ما هم عليه من الإيمان^(٣).

المطلب الثاني: السخرية والاستهزاء من قبل اليهود

ولم يكن دأب يهود المدينة بعيداً عن دأب المشركين في مكة، فقد عمد اليهود ومنذ أن حلّ بهم رسول الله ﷺ إلى الاستهزاء به وبدعوته، انظر إليهم وهم يسخرون من الصلاة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]، ذكر القرطبي في تفسيره: "قال الكلبي: كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا وقالوا في حق الأذان: لقد

(١) رجل صنبور: فرد ضعيف ذليل لا أهل له ولا عقب ولا ناصر.. وقالوا صنبيير أي أبتر لا عقب له ولا أخ فإذا مات انقطع ذكره.. أصل الصنبور: سعة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض.. الصنبور: النخلة تبقى منفردة ويدق أسفلها وينقشر... قال أبو عبيدة: فشبها النبي بها يقولون: إنه فرد ليس له ولد فإذا مات انقطع ذكره. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج٤)، ص٤٦٩.

(٢) ابن حبان، محمد بن أحمد البستي: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. باب ذكر تسمية المشركين صفي الله صلى الله عليه وسلم الصنبيير المنبتر. حديث رقم: ٦٥٧٢. ج١٤، ص٥٣٤. تعليق الألباني: صحيح الإسناد. انظر: الألباني: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان. كتاب التاريخ، باب كتب النبي ﷺ. رقم الحديث: ٥٦٣٨، (ج٩)، ص٢٩٢.

(٣) انظر: الآيات: [المطففين: ٢٩-٣٢]

ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمع به من أمر. وقيل: إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون، تجهيلاً لأهلها، وتنفيراً للناس عنها وعن الداعي إليها^(١).

ولما لم يعقل أولئك معاني عبادة الله، عز وجل، المتمثلة بالصلاة التي هي تعظيم لشعائر الله وصلة العبد بربه، جاء وصف القرآن لهم: { ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ } [المائدة:

٥٨].

وليس هذا فحسب، بل في ليّ أسنتهم إيذاء له ﷺ، قال تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَآسَمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦] قال الطبري: "وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود الذين كانوا حوالي مهاجر رسول الله ﷺ في عصره: أنهم كانوا يسبون رسول الله ﷺ ويؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كقول القائل للرجل يسبّه: اسمع، لا أسمعك الله... قال ابن زيد في قوله: {وَآسَمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ}، قال: هذا قول أهل الكتاب يهود، كهيئة ما يقول الإنسان: "اسمع لا سمعت"، أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وشتماً له واستهزاء"^(٢).

وذكر الزمخشري في تفسيره: " وكذلك قولهم راعنا يحتمل راعنا نكلمك، أي ارقبنا وانتظرنا. ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها، وهي: راعينا، فكانوا - سخرية بالدين وهزوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام، { لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ } فتلاً بها وتحريفاً، أي يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل، حيث يضعون (راعنا) موضع (انظرنا)"^(٣).

ومن الآيات التي تبين وتثبت خبث اليهود في كلامهم وخطابهم للرسول ﷺ وتحريفهم للكلام بقصد الدعاء عليه، ما جاء في قول الله عز وجل: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيْ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج٦)، ص ٢٢٤.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج٨)، ص ٤٣٣-٤٣٤.

(٣) الزمخشري: الكشاف. (ج١)، ص ٥١٧.

[المجادلة: ٨] قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا جاءك يا محمد هؤلاء الذين نهوا عن النجوى، الذين وصف الله جلّ ثناؤه صفتهم، حيوك بغير التحية التي جعلها الله لك تحية، وكانت تحيتهم التي كانوا يحيونه بها، التي أخبر الله أنه لم يحيه بها فيما جاءت به الأخبار، أنهم كانوا يقولون: السام^(١) عليك"^(٢).

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان اليهود يسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: السام عليك، ففطنت عائشة إلى قولهم، فقالت: عليكم السام واللعنة، فقال النبي ﷺ: « مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله » فقالت: يا نبي الله، أولم تسمع ما يقولون؟ قال: " أولم تسمعي أنني أرد ذلك عليهم، فأقول: وعليكم"^(٣). فرغم أنهم كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم أنه رسول الله، وأن دعاءهم لا يستجاب في حقه، فمضوا على الدعاء عليه وتحريف الكلام؛ استهزاء وسخرية به.

المطلب الثالث: السخرية والاستهزاء من قبل المنافقين

وليس بعيداً عن المشركين واليهود منافقو المدينة الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، فكان خطرهم أشد وأقوى من خطر أولئك، فعمدوا إلى الاستخفاف بالنبي ﷺ وبالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، وهذه الآية تظهر لنا جلياً صفة الخداع والمكر لدى المنافقين، فهذا هو حالهم حيث كانوا يوهمون أنفسهم بهذا الفعل القبيح وتلك السخرية أنهم يلهون ويلعبون ويخوضون بكلامهم، قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥] "يقول تعالى جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، ليقولن لك: إنما قلنا ذلك لعباً، وكنا

(١) السام: أي الموت. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ١٢)، ص ٣٠٢.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج ٢٣)، ص ٢٣٨.

(٣) البخاري: صحيح البخاري. كتاب الدعوات. باب الدعاء على المشركين. رقم الحديث: ٦٣٩٥. (ج ٨)، ص ٨٤. مسلم: صحيح مسلم. كتاب السلام. باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم. حديث رقم: ٢١٦٥. (ج ٤)، ص ١٧٠٦.

نخوض في حديث لعباً وهزواً. يقول الله لمحمد ﷺ: قل يا محمد أبا الله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزئون" (١).

وذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية: "قال قتادة: بينما رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين إذ قالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها! هيهات له ذلك، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله: "احبسوا علي الركب" فأتاهم فقال: "قلتم كذا وكذا؟" فقالوا: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأُنزل الله تعالى هذه الآية" (٢).

ومن صور استهزاء وسخرية المنافقين برسول الله ﷺ وبكلامه ووعظه للصحابة الكرام، أنهم كانوا يستخفون من كلامه ومواعظه، فيعيبونها ويقللون من قيمتها، وكأنهم لم يفهموا منه شيئاً، وقد كشف الله أسلوبهم الخبيث، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦] ذكر البغوي في تفسير هذه الآية: "ومنهم، يعني من هؤلاء الكفار، من يستمع إليك، وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً، حتى إذا خرجوا من عندك، يعني فإذا خرجوا من عندك، قالوا للذين أوتوا العلم، من الصحابة، ماذا قال، محمد، آنفاً، يعني الآن، وهو من الائتلاف ويقال: ائتنفت الأمر أي ابتدأته وأنف الشيء أوله، قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال ابن عباس: وقد سئلت فيمن سئل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم، فلم يؤمنوا، واتبعوا أهواءهم، في الكفر والنفاق" (٣). وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ [محمد: ١٦] قال: "كنت فيمن يُسأل" (٤).

(١) الطبري: جامع البيان. (ج ١١)، ص ٥٤٢.

(٢) الواحدي: أسباب نزول القرآن. تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان. الناشر: دار الإصلاح - الدمام، (ط ٢)، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ص ٢٥٠.

(٣) البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن. (ج ٤)، ص ٢١٣.

(٤) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین. کتاب التفسیر. باب تفسیر سورة محمد. حديث رقم: ٣٧٠٥. (ج ٢)، ص ٤٩٦. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. تعليق الذهبي: حديث صحيح الإسناد.

ومن ذلك أيضاً، إيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ بالقول ووصفه بأنه أذن سامعة، فيسمع من كل أحد ما يقوله فيقبله ويصدق، خاصة عندما اختلقوا الأعذار الكاذبة لعدم خروجهم لغزوة تبوك، فما قالوا ذلك عنه وألصقوا التهم به إلا سخرية بالنبي ﷺ، وقد كشف القرآن الكريم حالهم وخبث ضمائرهم، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٌ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١] يقول الزمخشري: "الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، سمى بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملة أذن سامعة... وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه هُوَ أذُنٌ. وأذن خير، كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح. كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك ... ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخالص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه، لا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والنقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة^(١)، " وروي عن الحسن البصري ومجاهد أنهما تأولا أنهم أرادوا بقولهم هُوَ أذُنٌ أي يسمع منا معاذيرنا وتتصلنا ويقبله، أي فنحن لا نبالي عن أذاه ولا الوقوع فيه، إذ هو سماع لكل ما يقال من اعتذار ونحوه، فهذا تنقص بقلة الحزامة والانخداع، وروي عن ابن عباس وجماعة معه أنهم أرادوا بقولهم هُوَ أذُنٌ أي يسمع كل ما ينقل إليه عنا ويصغي إليه ويقبله، فهذا تشكك منه ووصف بأنه يسوغ عنده الأباطيل والنمائم، ومعنى أذُنٌ سماع، ويسمى الرجل السماع لكل قول أذناً إذا كثر منه استعمال الأذن، فهذه تسمية الشيء بالشيء إذا كان منه بسبب"^(٣).

(١) الغرة: الشاب الذي لا تجربة له... والاسم: الغرة: فالغرة الذي لا يظن للشر ويغفل عنه. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ٥)، ص ١٦.

(٢) الزمخشري: الكشاف. (ج ٢)، ص ٢٨٤.

(٣) ابن عطية: المحرر الوجيز. (ج ٣)، ص ٥٢.

لم يكتف المنافقون بإيذاء النبي ﷺ بالقول من باب السخرية والاستهزاء، بل كانوا يؤذون الصحابة والمؤمنين أيضاً بالقول والنقيصة والاتهام بالباطل، وتنشيط عزائمهم عن الخير وعيب المجاهدين منهم، وبما يقدمونه في سبيل الله^(١).

ومن هنا نلاحظ أن أسلوب الاستهزاء والسخرية هو ديدن الكفر أينما كان موقعه في مكة والمدينة، ولقد عمد الكفار إلى الاستهزاء بالنبي ﷺ بشخصه، وبدعوته، وبالمؤمنين من حوله؛ وذلك لضعفهم وعدم قدرتهم على مجابهة الحق بالحق والبرهان.

(١) انظر: الآية [التوبة: ٧٩].

المبحث الثالث

الإغراءات الدنيوية والمساومة على الدين

يحاول أعداء الإسلام النيل من هذا الدين والصد عنه بشتى الطرق والأساليب، فإن فشلوا في واحد استعملوا الآخر، فهذه الإغراءات وتلك المساومات التي قدموها للنبي ﷺ مقابل ترك دعوته والتسليم لهم، تعدّ من الأساليب الخطيرة على الدعوة والدعاة؛ لما لها من الأثر البالغ على نفسية بعض الدعاة وهمّتهم، ولها الوقع الكبير على من تعلق قلبه بالدنيا وزينتها من أولئك الدعاة.

فهذا الأسلوب من الابتلاءات الخارجية والتي مارسها أعداء الإسلام من تقديم الإغراءات الدنيوية وتقديم المساومات، فهذا قد يندفع به بعض الدعاة الذين لربّما قد نجحوا في تخطي ابتلاءات سابقة من تهديد ووعد واستهزاء وضرر وأذى ونحو ذلك، ولكنهم قد يفشلون في ابتلاء الإغراءات ويقعون فيه، ولهذا يجب على الداعية أن لا يعلق بناظره إغراءات الدنيا وزينتها، ويطهر قلبه منها، فكل متاعها إلى زوال، ويعلق قلبه بالمتاع الأبدي السرمدي في الآخرة.

ولهذا فقد حذر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ من أن ينظر إلى متاع زائل من زينة الحياة الدنيا والذي قد لحق بأصناف من الناس؛ وما ذلك إلا فتنة لهم ليزدادوا كفراً وضلالاً وبعداً عن دين الله وهدايته، وكل ذلك إلى زوال لأنه في دنيا زائلة، أما رزق الله فهو خير وأبقى في المعاد؛ لأنه سيلاقيه في الجنة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ ﴾ [طه: ١٣١] (١).

وقد حذر النبي ﷺ أتباعه أيضاً من التعلق بالدنيا وزينتها، والتنافس عليها حتى لا تهلكهم كما أهلك من قبلهم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تُبْسَطَ عليكم الدنيا كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم فتتافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم" (٢).

(١) انظر: البغوي: معالم التنزيل. (ج٣)، ص ٢٨١.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب المغازي. باب. حديث رقم: ٤٠١٥، (ج٥)، ص ٨٤. مسلم: صحيح مسلم. كتاب الزهد والرقائق. حديث رقم: ٢٩٦١. (ج٤)، ص ٢٢٧٣.

وقد عني القرآن الكريم بطرح تلك الإغراءات التي قدمها أعداء الإسلام للرسول صلى الله عليه وآله وسلم محاولين صده عما يدعو إليه ويرنو له، فعرض محاولات المساومة على هذا الدين وعلى ثوابته إلا أن محاولاتهم قد باءت بالفشل والخذلان.

ومن تلك المحاولات التي أشار لها القرآن الكريم، ما جاء في قوله عز وجل: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ^ط وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٣]، وقد اختلف العلماء في سبب نزول تلك الآية، ورغم هذا الاختلاف إلا أنه قد جاءت هذه الروايات والتي تذكر تلك المساومات الخبيثة التي عرضها كفار مكة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمنها قولهم له: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتى تلمس آلهتنا فحدث النبي نفسه بفعل ذلك. ومنها: أنهم طلبوا منه أن يمسه آلهتهم؛ حتى يسلموا فحدث نفسه بذلك. ومنها: ما طلبه وفد ثقيف من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهي عدة مطالب والتي منها أن يتمتعهم باللات والعزى سنة من غير أن يعبدوها، فلم يرض صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، ثم نزلت الآيات^(١). ومعنى {ليفتنوك} "أي يزيلونك... وقيل يصرفونك، والمعنى واحد. {عن الذي أوحينا إليك} أي حكم القرآن، لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن. {لتفتري علينا غيره} أي لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك... {وإذا لاتخذوك خليلاً} أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً، أي والوك وصافوك، مأخوذ من الخلطة (بالضم) وهي الصداقة لممايلته لهم. وقيل: "لاتخذوك خليلاً" أي فقيراً. مأخوذ من الخلطة (بفتح الخاء) وهي الفقر لحاجته إليهم"^(٢).

فعصم الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وحفظه من المساومات على دين الله، وفي هذا درس مهم للأمة بأن لا يركن أحد منهم إلى هؤلاء المشركين فيرضوا بما أرادوه من مساومات على حساب أحكام الله وشرائعه.

(١) انظر: الواحدي: أسباب نزول القرآن. ص ٢٨٩. الطبري: جامع البيان. (ج ١٧)، ص ٥٠٧-٥٠٨. البغوي: معالم التنزيل. (ج ٣)، ص ١٤٧. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم: الكشف والبيان عن تفسير القرآن. تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور

مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (ط ١) ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م (ج ٦)، ص ١١٧-١١٨.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ١٠)، ص ٣٠٠.

ولهذا حذر الله عز وجل نبيه ﷺ من أن يقع في مكرهم وتحقيق ما يتمنون من تلك المساومات على دينه، فقال عز وجل: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩] ومعنى الآية: "ودُّوا لَوْ تُدْهِنُ تلاينهم بأن تدع نهيمهم عن الشرك، أو توافقهم فيه أحياناً. فَيُدْهِنُونَ فيلأينونك بترك الطعن والموافقة، والفاء للعطف أي ودوا التداهن وتمنوه لكنهم أخروا ادهانهم حتى تدهن، أو للسببية أي وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فهم يدهنون حينئذ، أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون طمعاً فيه" (١).

ومن الآيات الكريمة التي تبين تلك المساومات على دين الله والتي عرضها كفار قريش على النبي ﷺ، ما جاء في سورة الكافرون، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَهُوَ قُلُوبُهُمْ لَا يَعْبُدُونَ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١-٦] روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه: أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجونه ما أراد من النساء، ويطأون عقبه، فقالوا: هذا لك عندنا يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا، ولا تذكرها بشر؛ فإن بغضت فإننا نعرض عليك خصلة واحدة، ولك فيها صلاح قال: «وما هي؟» قال: تعبد إلها سنة اللات والعزى، ونعبد إلهك سنة، قال: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي»، فجاء الوحي من عند الله عز وجل من اللوح المحفوظ: ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَهُوَ قُلُوبُهُمْ لَا يَعْبُدُونَ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [السورة] وأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَمُرُّونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤]، ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦] (٢).

ونلاحظ من تلك المساومات ما قدموه له من تلك الإغراءات الدنيوية من مال ونساء؛ وما ذلك إلا لإمالة قلبه عن دعوته ودينه وعبادة أوثانهم، ومن هنا جاء الاعتراض على مزاعمهم وإغراءاتهم ومساوماتهم على دين الله، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَمُرُّونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

(١) البضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط١) ١٤١٨ هـ، (ج٥)، ص ٢٣٤.

(٢) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الصغير. تحقيق محمد شكور محمود الحج اميرير. المكتب الإسلامي، دار عمار. بيروت-عمان. (ط١) ١٤٠٥ هـ. حديث رقم: ٧٥١. ج ٢، ص ٤٤. حكم الألباني: إسناده حسن. انظر الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح السيرة النبوية. دار المكتبة الإسلامية. عمان، الأردن. ص ٢٠٥-٢٠٧.

ومن المساومات الخبيثة التي مارسها كفار قريش مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومحاولتهم شق الصف المسلم، وإظهار التباين والاختلاف فيه، فتجدهم أنهم قد عرضوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، خاصة عندما رأوا مجلسه مع فقراء الصحابة، أن يطردوهم فيجلسوا معه تكبراً وغروراً منهم، روى مسلم في صحيحه عن سعد قال: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا. قال وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(١) [الأنعام: ٥٢]، وفي هذا إعلاء لشأن هؤلاء الفقراء من

المسلمين، وإظهار لعدالة الدين في التعامل بين الناس فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى. ومما يدل على علو شأنهم ورفعتهم عند الله عز وجل، فقد أمر الله نبيه أن يصبر ويحبس نفسه مع هؤلاء الفقراء من الصحابة، ولا يأبه بعروض سادة قريش ومساوماتهم، وإن بدى في ظاهرها الخير للدعوة، قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، روى ابن ماجه عن خباب (رضي الله عنه) قال: "فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ، يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم، قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] ولا تجالس الأشراف: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] يعني عيينة، والأقرع ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨] قال: هلاكاً، قال: أمر عيينة، والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا قال خباب: «فكنا نقعد مع النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم»^(٢).

(١) مسلم: صحيح مسلم. كتاب فضائل الصحابة. باب فضل سعد بن أبي وقاص. حديث رقم: ٢٤١٣. (ج٤)، ص ١٨٧٨.
(٢) ابن ماجه: محمد القزويني: سنن ابن ماجه. كتاب الزهد. باب مجالسة الفقراء. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية. حديث رقم: ٤١٢٧. (ج٢)، ص ١٣٨٢. الألباني: صحيح السيرة النبوية. (ج١)، ص ٢٢٣-٢٢٤.

فالآيات تنزل وتدعو النبي ﷺ أن "اصبر نفسك مع هؤلاء. صاحبهم وجالسهم وعلمهم. ففيهم الخير، وعلى مثلهم تقوم الدعوات... بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه، {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة. فهذه زينة الحياة «الدنيا» لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ .. لا تطعمهم فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء. فلو ذكروا الله لطامنوا^(١) من كبريائهم، وخففوا من غلوائهم، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة، واستشعروا جلال الله الذي تتساوى في ظله الرؤوس وأحسوا رابطة العقيدة التي يصبح بها الناس إخوة. ولكنهم إنما يتبعون أهواءهم. أهواء الجاهلية. ويحكمون مقاييسها في العباد. فهم وأقوالهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله، لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرؤوس أمام الله. فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه. فهذه قيم زائفة، وقيم زائلة. إنما التفاضل بمكانها عند الله. ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له. وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان^(٢).

روى الواحدي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] "قال ابن عباس: إن جماعة من اليهود، منهم كعب بن أسد وعبد الله بن سوريا، وشاس بن قيس، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمد، قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة ونحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك. فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى فيهم: {واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك}^(٣)، فلا محاباة في حكم الله وشرعه، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا قيمة لتلك الأهواء التي قد تعلق بها هؤلاء الكفار.

(١) وَيُقَالُ: طَامَنَ ظَهْرَهُ إِذَا خَنَى ظَهْرَهُ. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ١٣)، ص ٢٦٨.

(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن. (ج ٤)، ص ٢٢٦٨.

(٣) الواحدي: أسباب نزول القرآن. ص ١٩٨.

كل تلك الآيات التي جاءت لتحذر سيد الدعاة صلى الله عليه وآله وسلم من الوقوع في هذا المنزلق الخطير، ويرضى بما يقدمونه من مساومات واقتراحات لإطماعه في دخولهم الدين، كل ذلك التحذير لرسول الله وهو الذي قد ثبته الله وعصمه من مؤامراتهم ومحاولاتهم الخبيثة للنيل من دعوته وعزمه، فحريّ بالداعية اليوم، أن يتمسك بكل أسباب الثبات، تاركاً خلفه كل إغراءات الدنيا وزينتها، معلقاً قلبه بما أعدّه الله له في الجنة من متاع باق سرمدي لا ينقطع، عندها يمضي بدعوته لا تؤثر عليه الدنيا وإن ضيّقت عليه بالفقر والأذى والسجن والنفي والإبعاد والتشكيك والاتهام، كما أنه لا تؤثر على قلبه إن فُتحت أمامه ملذاتها وزينتها، فيبقى رابط الجأش صلب المراس متعلقاً بربه وبما أعدّه له.

المبحث الرابع الحرب الإعلامية

من الابتلاءات التي وجهت للنبي ﷺ ورمي بها؛ تشويه صورته وإلقاء التهم جزافاً والصاقها به. وهدفهم في ذلك صدّ الناس عن هذه الدعوة والتشكيك فيها والنيل من أصحابها. ولذا فالآيات التي تتحدث عن صور الحرب الإعلامية كثيرة، والتي ترشدنا إلى أهمية الإعلام وخطره وما يبيته من تهم وإشاعات مغرضة على الدعوة وعلى أصحابها، ولقد تمثلت الحرب الإعلامية في عدة صور، جاءت ضمن أربعة مطالب:

المطلب الأول: الاتهامات الشخصية

بدأت الحرب الإعلامية لتمس شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وترميه بكثير من التهم التي ما فتى القرآن أن فندها وبين حقيقة زعمها وكذبها، ودليل ذلك تعدد تلك الاتهامات وتنوعها إلى درجة تناقضها، مما يؤكد كذبهم وافتراءهم. فكثيرة هي الآيات التي تبين تلك الاتهامات الشخصية التي رمي بها النبي ﷺ والتي سنذكر بعضها:

أولاً: اتهامه ﷺ بالكذب

رغم أن قريشاً كانت تنعته ﷺ بالصادق الأمين قبل بعثته، ولم يجربوا عليه كذباً قط، إلا أنهم رموه به بعد جهره بالدعوة. وهذا هو دأب الكفار والمشركين على مر التاريخ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤]. وقال أيضاً: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾ [الحج: ٤٢]، وفي ذلك تسلية له ﷺ.

فتارة يصفونه ﷺ بالكذاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ أَن جَاءَهُمْ مُّندِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿ [ص: ٤]، واستخدام اللفظ (كذاب) عميق يصور لنا بجاحتهم ووقاحتهم، إنهم حين يجروون على وصفه بمثل هذه الأوصاف يكونون قد بلغوا من الانحطاط مبلغه.

وفي موضع آخر يدّعون أن النبي ﷺ افترى عليهم زوراً وبهتاناً هذا الكتاب، قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ٣] ومعنى افتراه أي: افعله واختلقه^(١)، وفي موضع آخر أنه ﷺ تقول القرآن نقولاً من تلقاء نفسه، قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٣] أي "تخلق القرآن من تلقاء نفسه، والتقول: تكلف القول، ولا يُستعمل ذلك إلا في الكذب، وليس الأمر كما زعموا؛ بل لا يؤمنون بالقرآن استكباراً"^(٢).

إنه التشكيك الذي ينهاجه الكفار، فبوصفهم له ﷺ بالكذاب ثم بالافتراء يجعل كثيراً من الناس يترددون في الاستماع إليه، ولعل هذا ما كان يحزنه ﷺ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ سَجَحُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وليس هذا فحسب بل هو الجحود بعينه، قال سيد قطب: "إن مشركي العرب في جاهليتهم - وخاصة تلك الطبقة التي كانت تتصدى للدعوة من قريش - لم يكونوا يشكون في صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - فلقد عرفوه صادقاً أميناً، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة، كذلك لم تكن تلك الطبقة التي تنزع المعارضة لدعوته تشك في صدق رسالته، وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله، ولكنهم - على الرغم من ذلك - كانوا يرفضون إظهار التصديق، ويرفضون الدخول في الدين الجديد! إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكن لأن في دعوته خطراً على نفوذهم ومكانتهم، وهذا هو السبب الذي من أجله قرروا الجحود بآيات الله، والبقاء على الشرك الذي كانوا فيه"^(٣).

ثانياً: اتهامه ﷺ بالشعر

لم يبرع أحد في معرفة الشعر وأوزانه وقوافيه كبراعة العرب، ورغم معرفة قريش أن القرآن الكريم بآياته وفواصله المعجزة بعيد كل البعد عن ضروب الشعر وألوانه وأشكاله إلا أنهم عمدوا إلى

(١) الطبري: الجامع لأحكام القرآن. (ج ١٤)، ص ٨٥.

(٢) البغوي: معالم التنزيل. (ج ٤)، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن. (ج ٢)، ص ١٠٧٤.

اتهامه به، وهذا دليل على أنهم لم يجدوا ما يرمونه به، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِمٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥]، والآية تذكر أن المشركين قد اقتسموا القول في أمر النبي ﷺ وما جاء به؛ فقال بعضهم: إنه أضغاث أحلام وأباطيل يراها في نومه، وقال بعضهم: هو كاذب وكلامه اختلاق وفرية، وقال آخرون: بل هو شاعر وما جاء به هو من ضروب الشعر وألوانه. (١)

وهذا إن دل فإنما يدل على كذبهم وافتراءهم على رسول الله ﷺ، وعدم قبولهم لدعوة الحق وانصياعهم لها، لأن " الانتقال في المواضع الثلاثة للدلالة على التردد والتحير في وصف القرآن" (٢)، ولهذا ذكر القرآن لنا تكبرهم في رفضهم ترك عبادة الأصنام واتباع النبي الذي يتهمونه بالشعر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَيُّنَا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات: ٣٦] " أي نحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا لقول شاعر مجنون، يسرح في الخيال، ويخلط في الأقوال، يعنون رسول الله ﷺ. وبهذا أنكروا في الكلام الأول الوحداية، وفي الثاني أنكروا الرسالة" (٣).

ورد القرآن الكريم على تلك التهمة بأسلوب القسم الدال على عظمة الموقف، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۖ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۚ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴾ [الحاقة: ٤١] (٤).

ومن باب نفي قول الشعر عن النبي ﷺ، وكان في ذلك رد على تلك الفرية، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩] يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء... {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل، كما جعلناه أمياً لا يتهدى للخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدهى" (٥).

(١) انظر: البغوي: معالم التنزيل. (ج٣)، ص ٢٨٣.

(٢) الزحيلي: التفسير المنير. (ج١٧)، ص ١٠.

(٣) السابق. (ج٢٣)، ص ٨٣.

(٤) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج١٨)، ص ٢٧٥.

(٥) الزمخشري: الكشاف. (ج٤)، ص ٢٦.

ولهذا بطلت تلك الشبهة لجمال القرآن وقوة تعابيره وسياقه وسحر بيانه، مما دعاهم للتفكير في تهمة جديدة لمحاربتة والصد عنه.

ثالثاً: رمية بالجنون

وهي من التهم الملقاة على النبي ﷺ، فهذه التهمة كسابقاتها من التهم، لا تحتل وجهاً للصواب، كيف لا والمجنون هو الذي يأتي بكلام لا معنى له، ولا يعقل ولا يفهم ولا يدرك الأمور، ولا يدري ما يقول، وشتان بين من يتكلم ويهذي بما لا فائدة فيه، وبين من يتكلم بكلام كله بيان وحكمة لا تخفى على صاحب فطرة سليمة وذو عقل نير.

فهذا هو حال تلك التهم الكاذبة عندما تصطدم بصدق الواقع وقوة برهانه وحججه، فلم يبق لها أي ثبات أو استمرار أو تصديق بها.

وكثيرة هي الآيات القرآنية التي تصف لنا حالهم في اتهامهم للرسول ﷺ ورميه بالجنون، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]، فالآية تظهر لنا مدى عداوة أهل الشرك لشخص النبي ونفوذ أبصارهم إليه؛ ليصرعونه ويصيبونه بالعين، ثم بعد ذلك يلقون عليه تهمة الجنون^(١).

وفي موضع آخر يذكر الله عز وجل أسلوب الكفار في التهم والاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأن قوله هو قول المجانين، سيما عندما يدعي أن الله نزل عليه القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]^(٢).

والقرآن الكريم أظهر خبث نواياهم وخلجات نفوسهم من وراء تلك التهمة وقصدتهم منها، فهم يدركون تماماً أن النبي ﷺ ليس بمجنون، وأن كلامه صدق وحكمة لا يغفل عنها صاحب عقل واع، فهو عندهم صادق فيما يقول وفيما يدعوهم إليه، لكنهم يكرهون الإذعان للحق ولا يرضون اتباعه ﷺ حسداً منهم واستكباراً، فهذا هو السبب الرئيس لإلقاء تلك التهم الكاذبة في حقه ﷺ، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]^(٣).

(١) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج ٢٣)، ص ٢٠٢.

(٢) انظر: البيضاوي: أنوار التنزيل. (ج ٣)، ص ٢٠٧.

(٣) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج ١٩)، ص ٥٧.

ومعنى الآية: " إنهم يقولون عن الرسول: إن به جنوناً لا يدري ما يقول، مع أنهم يعلمون أنه أرجح الناس عقلاً ورأياً. ثم بين الله تعالى السبب الحقيقي في عدم إيمانهم فقال: ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ أي بل جاءهم الرسول الصادق الأمين بالحق الثابت الذي لا محيد عنه، وهو توحيد الله والتشريع المحقق للسعادة، لكن أكثرهم كارهون لهذا الحق، لتأصل الشرك في قلوبهم، وتمسكهم بتقليد الآباء والأجداد، وحفاظهم على المناصب ومراكز الزعامة والرياسة. وإنما قال أَكْثَرُهُمْ لأن بعضاً منهم تركوا الإيمان أنفة واستعلاء، وتخوفاً من توبيخ القوم وتعييرهم، لا كراهة للحق، كما حكى عن أبي طالب^(١).

ولهذا يقسم الله عز وجل في القرآن الكريم بأن محمداً ﷺ ليس بمجنون كما يدّعي أهل مكة، وأن القرآن نزل به جبريل عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢]^(٢).

رابعاً: السحر والكهانة

ومما اتهم به ﷺ السحر والكهانة، فزعموا أنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه، وبين الرجل وأهله، وأن ما جاء به ضرب من ضروب السحر والشعوذة والكهانة التي تؤثر على سامعها. ولعل هذه التهمة هي أقرب التهم وأقلها ضرراً على المنكرين لدعوته؛ سيما أنها جاءت على لسان بعض زعماتهم عندما احتاروا بشأن محمد ﷺ وما جاء به، واختلّفوا في التهم التي هي أنسب أن يُتهم بها، ولهذا فقد أنكر الوليد بن المغيرة -أحد قادتهم- تلك التهم الملقاة على النبي ﷺ من أنه شاعر أو كاهن أو مجنون، لكنه أقر بعد ذلك بأنه ساحر، فنزلت الآيات في حقه ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤]^(٣)، وبهذا الموقف يتضح لنا إنكار الكفار تلك التهم عن رسول الله ﷺ من الكذب والكهانة والجنون، وأثبت تهمة السحر على رسول الله ﷺ بناءً على أنه قد فرق بين الرجل وأهله وولده، وهذا هو فعل السحر وتأثيره على الآخرين حسب ما يزعمون، ولهذا استحق الوليد عقاب الله وعذابه على تلك التهمة التي ألقاها على رسول الله، قال الله تعالى:

(١) الزحيلي: التفسير المنير. (ج١٨)، ص ٧٥.

(٢) انظر: البغوي: معالم التنزيل. (ج٥)، ص ٢١٧.

(٣) سبق تخريجه، انظر: ص ٢٦. الواحدي: أسباب النزول. ص ٤٦٨.

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدرثر: ٢٦]؛ ذلك أنهم قالوا فيه ﷺ " أقولاً مختلفة متضادة، كلها باطلة كما قال تعالى: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩] وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ﴾ فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَسَرَ ﴿ ثُمَّ أَدَبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدرثر: ١٨ - ٢٤] أي: ينقل ويحكي، فتفرقوا عن قوله ورأيه^(١).

وفي موضع آخر يكشف الله لنا سرَّ هؤلاء الكفار ونجواهم في أمر النبي ﷺ أثناء اجتماعهم في دار الندوة واستخفافهم به، واستهزائهم بما يدعو إليه، ثم اجتماعهم على قول واحد فيه وهو السحر، فشبهوا الخبال^(٢) الذي عنده -بزعمهم- وأقواله الضعيفة -برأيهم- وأعماله المختلطة، كالمسحور الذي خفَّ عقله أو زال فأفسد عليه كلامه، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]^(٣).

وقوله أيضاً: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿

[ص: ٤]، فالآية ذكرت تهمتين ألصقتا برسول الله ﷺ، فقالوا إنه ساحر يسحر بكلامه فيخدع الناس ويفرق بينهم، وهو كذاب في دعواه بأنه نبي مرسل من عند الله.^(٤)

وردَّ الله عز وجل على تهمهم بل وأقسم سبحانه بأن محمداً هو رسول من عنده، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الحاقة: ٤٢] فالله عز وجل يخاطب مشركي قريش ويبين لهم أن محمداً ﷺ ليس بكاهن، وبأن ما جاء به إنما هو من عند ربه وليس بسجع الكهان.^(٥)

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. (ج٤)، ص ٥٦٥.

(٢) الخبال: الجنون. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ١١)، ص ١٩٨.

(٣) انظر: ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (ج ٣)، ص ٤٦١.

(٤) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ١٥)، ص ١٤٩.

(٥) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج ٢٣)، ص ٢٤٢.

والآيات في هذا المضمار كثيرة^(١) والتي تثبت لنا مدى جهل أعداء الإسلام في سرعة اتهام الحق وأهله، بل تحيرهم وتتوهمهم في تلك التهم، وتعارضها مع بعضها البعض، مما يؤكد لنا مصداقية الدعوة والداعي لها، ولا يتسع المقام لذكر كل الآيات التي تبين كل تلك التهم الباطلة، وقد اكتفينا بإثباتها بالآيات التي ذكرناها.

خامساً: أنه جاء بالقرآن من عند غير الله

ومما افتراه الكفار على نبيِّنا محمد ﷺ، ليصدوا الناس عن اتباعه، وهي صورة من صور الحرب الإعلامية ضده، قولهم عنه بأنه لم يأت بالقرآن من عند الله، وأنه تعلمه عند شخص آخر وأخذه منه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، يقول الرازي في تأويل هذه الآية: "ثم تولوا عنه ولم يلتفتوا إليه، وقالوا معلَّم مجنون، وذلك لأن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام قولان: منهم من كان يقول إن محمداً يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس لقوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ [النحل: ١٠٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، ومنهم من كان يقول: إنه مجنون والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي"^(٢).

فهاهم المشركون يدعون أن ما جاء به محمد ﷺ إنما تعلمه من بشر من بني آدم وما هو من عند الله عز وجل، ولقد اختلفت الروايات في تحديد هذا البشر.^(٣)

وفي موضع آخر يظهر لنا مدى تخطيط الكفار في إلصاق التهم بالرسول ﷺ، فتارة يزعمون أن ما جاء به من كلام ربه هو علم قد أخذه من بشر من بني آدم، وتارة يزعمون بأن الشياطين هي التي علمته وكانت تنزل عليه بهذا الكلام، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، ولهذا رد الله عليهم ودحض تلك التهمة، يقول الطبري: "يقول تعالى ذكره: وما تنزلت بهذا القرآن الشياطين على محمد، ولكنه ينزل به الروح الأمين. {وما ينبغي لهم} يقول: وما ينبغي للشياطين أن ينزلوا به عليه، ولا يصلح لهم ذلك. {وما يستطيعون} يقول: وما يستطيعون أن

(١) انظر: الأنعام: ٧، هود: ٧، الزخرف: ٣٠، الأحقاف: ٧، القمر: ٢، المدثر: ٢٤.

(٢) الرازي، محمد بن عمر: مفاتيح الغيب. دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط٣)، ١٤٢٠هـ، (ج٢٧)، ص ٦٥٧-٦٥٨.

(٣) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج١٤)، ص ٣٦٤-٣٦٩.

ينزلوا به، لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به من السماء، {إنهم عن السمع لمعزولون} يقول: إن الشياطين عن سمع القرآن من المكان الذي هو به من السماء لمعزولون، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به^(١).

وفي موضع آخر نفى قول كفار مكة من أن هذا القرآن كان يأتي به شيطان فيلقيه على لسان النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]^(٢).

حتى إن اليهود لم يسلموا من اتهامهم بأنهم هم من علم النبي ﷺ، وأعانوه على هذا الكلام، ولهذا فقد فسر بعض المفسرين^(٣) قوله تعالى: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، بأن هؤلاء القوم هم اليهود.

ونلاحظ في آية أخرى نلاحظ ما يؤكد هذا الافتراء، بأن اليهود هم الذين أعطوه هذا الكلام وأملوه عليه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] أي: "وقال هؤلاء المشركون بالله، الذين قالوا لهذا القرآن: إن هذا إلا إفك افتراه محمد ﷺ: هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين، يعنون: أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم، اكتتبها محمد ﷺ من يهود. {فهى تملى عليه}... فهذه الأساطير تقرأ عليه، من قولهم: أملت عليك الكتاب وأملت. {بكراً وأصيلاً} يقول: وتملى عليه غدوة وعشياً".^(٤)

ولعل اختلاف الكفار في تحديد تلك الجهة الخارجية التي كانت تدعم وتعلم النبي ﷺ لهو دليل على تخطيطهم في إلقاء تلك التهم، فتارة تجدهم من إفكهم يقولون إنما يعلمه بشر، وتارة يقولون إنما يعلمه شيطان رجيم، وتارة قد أخذ العلم من أحاديث وقصص وأساطير قديمة، وتارة قد اكتتبها من يهود وعلموه إياها، وبغض النظر عن ذلك الاختلاف في طرح تلك التهم، لكن المهم لديهم أن هذا الكلام الذي جاء به للاستدلال على صدق رسالته هو ليس من كلام ربه. وكما أنهم قد عرضوا كثيراً من التهم الشخصية من أنه شاعر ومجنون وكاهن وساحر وتلقى القرآن من غير الله، وهذا

(١) الطبري: جامع البيان. (ج١٧)، ص ٦٥٢.

(٢) انظر: الرازي: مفاتيح الغيب. (ج٣١)، ص ٧٠.

(٣) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج١٧)، ص ٣٩٧-٣٩٨. الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن. (ج٧)، ص ١٢٣.

البغوي: معالم التنزيل. (ج٣)، ص ٤٣٥.

(٤) الطبري: جامع البيان. (ج١٧)، ص ٤٠٠.

التنوع في التهم والاختلاف إلى درجة التضاد بينها، كل ذلك يدل على ضعفهم في مجابهة الحق وأدلتهم، ويدل على تخبطهم وعنادهم وعدم قبولهم وإذعانهم للحق.

المطلب الثاني: المطالب التعجيزية

لقد بذل الكفار كل ما بوسعهم للصدّ عن دعوة محمد ﷺ والنيل منها والقضاء عليها، وفي الوقت الذي نجدهم يلصقون به التهم، يعمدون إلى أسلوب خبيث وذلك بعرض مطالب أو اقتراحات من شأنها أن تعجزه ﷺ وتضعه في موقف لا يحسد عليه أمام الجميع، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۚ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۚ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

فذكرت الآيات عدة ألوان من تلك الاقتراحات فمنها عيون الماء يأتيهم بها محمد ﷺ في أرض مكة، وتارة أن تكون له جنة أو بستان فتفجر من وسطه الأنهار، وما ذلك إلا اقتداء ببلاد الشام والعراق التي قد رأوا ما فيها من البساتين والأنهار، ثم بعد ذلك زادوا في الاقتراح والتعنت والعناد، فطلبوا أن يسقط السماء عليهم قطعاً من العذاب، أو أن يأتي بالله والملائكة كفيلاً بما يقول ودليلاً على صحته وصدقه، فيقابلونهم مقابلة ويعاينونهم معاينة، وتارة يكون له بيت من ذهب، أو أن يرقى في السماء فيأتي بكتاب منشور يأمرهم بالاتباع والإيمان والتصديق به حتى يثبت لهم صدقه^(١).

ومما يؤكد بعض تلك المطالب والاقتراحات التعجيزية، ما جاء في موضع آخر، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً ﴾ [المدثر: ٥٢]، فكل واحد منهم يريد كتاباً من السماء ينزل عليه باسمه من رب العالمين إلى فلان^(٢)، ولهذا جاء الرد الإلهي على اقتراحاتهم تلك بقوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] أي:

(١) انظر: الطبري، جامع البيان. (ج ١٥)، ص ٧٧-٨٥. القاسمي: محاسن التأويل. (ج ٦)، ص ٥١٢.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان. (ج ٢٣)، ص ٤٦٠-٤٦١.

"قل يا محمد متعجباً من اقتراحاتهم: تنزه ربي وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، فهو الفعال لما يشاء، وما أنا إلا رسول بشر كسائر الرسل أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وليس للرسل أن يأتوا بشيء إلا بما يظهره الله على أيديهم على وفق الحكمة والمصلحة، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل، إن شاء أجابكم وإن شاء لم يجبكم" (١).

فالله عز وجل هو القادر على كل شيء، وهو سبحانه قادر على أن يأتي بآية كما يطلبون، ولكنه سبحانه وتعالى يبلغ نبيه ﷺ عن جحود هؤلاء الكافرين وإعراضهم وتكذيبهم لرسالاته بعد كل الآيات الدالة على صدقه والتي قد أنزلها عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٨]، فالله عز وجل يخبر نبيه فيما سبق من علمه أنه لو نزل على هؤلاء الكفار ذلك الكتاب الذي طلبوه منه واقتروه عليه، ثم لمسوه بأيديهم فيعاینونه معاینة، لعاندوا فيه وكذبوه وتابعوا كفرهم وقالوا: سحر مبين (٢).

ومما يؤكد لنا هذا الإنكار والجحود حتى ولو نزلت تلك الآيات والاقتراحات التي طلبوها، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢] فيبين لنا القرآن الكريم جحود الكفار وإعراضهم وإنكارهم تلك المعجزات والاقتراحات التي طلبوها من النبي ﷺ لا سيما بعد تحقيقها، ومن الأمثلة على ذلك معجزة انشقاق القمر "وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر، آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمر، سحرنا محمد، فقال الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾" (٣). روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: "انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين، فقال ﷺ: اشهدوا" (٤).

(١) الزحيلي، التفسير المنير. (ج ١٥)، ص ١٦٦.

(٢) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ٦)، ص ٣٩٣.

(٣) الطبري، جامع البيان. (ج ٢٢)، ص ٥٦٥.

(٤) البخاري: صحيح البخاري. كتاب المناقب. باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر. حديث رقم: ٣٦٣٦. (ج ٤)، ص ٢٠٤. مسلم: صحيح مسلم. كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب انشقاق القمر. حديث رقم: ٢٨٠٠. (ج ٤)، ص ٢١٥٨.

فليس لهم ثمة خروج من هذا المأزق، وهو تحقيق تلك الاقتراحات وتنفيذها، إلا باتهامه ﷺ بالسحر المبين فيعودون من جديد إلى الاتهامات الشخصية المفتراة عليه.

وما هذا الإعراض والتكذيب من الكفار إلا اقتداء منهم بمن سبقوهم من الأقوام السابقة الذين كفروا وأنكروا رسالة أنبيائهم وكذبوهم، فحالهم كحالهم من حيث سؤال أنبيائهم ما لا يطيقون من تلك الاقتراحات التعجيزية. ولهذا فقد ذكر لنا القرآن الكريم بعض تلك الاقتراحات التي وردت من أفواه الكفار في تلك الأمم الغابرة والتي تعاد من جديد على السنة كفار قريش أو اليهود والنصارى زمن النبي ﷺ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ويحمل معه مشابهة الأقوام السابقة واقتراحاتهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨] وعلى اختلاف المقصود من قوله: {الذين لا يعلمون} هل هم اليهود أو النصارى أو كفار العرب، فإن مقولتهم تلك قد قالها الكفار من الأمم الخالية، ولهذا تشابهت قلوبهم في الكفر والقسوة والإعراض، وتمردهم على الله، وقلة معرفتهم بقدرته وعظمته، وجرأتهم على الأنبياء، كما أن أقوالهم قد تشابهت أيضاً^(١)، ويقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨] "والمراد أن الله ذم من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء، على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، تعنتاً وتكذيباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أي: من يشتر الكفر بالإيمان ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر"^(٢).

ولهذا يُظهر الله عز وجل حكمته الإلهية في عدم الاستجابة لمثل تلك المطالب التعجيزية، وتنفيذ بعضها على يد نبيه ﷺ؛ لأن في تنفيذها وإنزالها ما يستوجب العقاب على من أنكر وجحد

(١) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج٢)، ص ٤٧٦-٤٧٩. البغوي: معالم التنزيل. (ج١)، ص ١٦٠.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. (ج١)، ص ٣٨١-٣٨٢.

بعد ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩] يقول القاسمي في تأويل هذه الآية: " {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ} أي التي يقترحها قريش: {إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} أي إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم. كعاد وثمرود. وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك. فاستوجبوا الاستئصال. على ما مضت به السنة الإلهية. وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن. ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة... ليعلموا السنة الإلهية مع العاتين، فيتذكروا ويتوبوا." (١). وهذا من رحمته سبحانه وتعالى بهم وهو عدم استعجال العذاب والنقم بهم.

ولهذا لم يكن هذا الأسلوب ضد النبي ﷺ ودعوته جديداً، بل مورس من قبل اليهود والنصارى أثناء مواجهتهم لأنبيائهم السابقين، فقال بعضهم غضب الله وسخطه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْعَةُ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥].

وليس الهدف من تلك الاقتراحات والمطالب التعجيزية البحث عن الإيمان والتصديق به، بل هو الكفر والتعنت والعناد والاستخفاف بالآيات البينات التي أنزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والجحود بما جاء به من كلام ربه.

وبورود هذه المطالب والاقتراحات التعجيزية على لسان الأمم الكافرة الماضية والتي قد استعملوها وقالوها لرسولهم، وتكرارها واختيار الاقتراح نفسه زمن النبي ﷺ، فهذا إن دل فإنما يدل على خطر هذا الأسلوب في التشكيك بالنبوة والرسالة والحد من أتباعه والصد عن منهجه.

وليس ثمة شك أن في ذكر أخبار الأمم السابقة تسلية للنبي ﷺ، فقد سبقه الأنبياء الذين مروا بمثل هذه المعاناة مع قومهم ولاقوا من التكذيب والرمي بالجنون والسحر والكهانة ما لا قوه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧] والمعنى: "أننا نعلم أنهم لا يؤمنون كما لم يؤمن من قبلهم من الكفرة لما جاءتهم أمثال تلك الآيات. فعلم الناس أن الإصرار على الكفر سجية للمشرك لا

(١) القاسمي: محاسن التأويل. (ج٦). ص ٤٧١.

يقولها إظهار الآيات، فلو آمن الأولون عندما أظهرت لهم الآيات لكان لهؤلاء أن يجعلوا إيمانهم موقوفاً على إيجاد الآيات التي سألوها... والأظهر أن هذا تثبت لأفئدة المؤمنين لئلا يفتنهم الشيطان، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لحرصه على إيمان قومه، فلعله يتمنى أن يجيبهم الله لما سألو من الآيات ولحزنه من أن يظنوه كاذبا^(١)، فهذه هي إرادة الله بهداية من هدي، وضلال من ضل وعاند وغوى.

المطلب الثالث: إثارة الشبهات حول الدعوة

لقد عمد أعداء الإسلام بكل الوسائل والأساليب وبشتى ألوان المواجهة للنيل من دعوة محمد ﷺ، وما التشكيك في دعوته إلا واحدة من الشبهات التي أثاروها لصدّ الذين آمنوا عن دينهم وتحذير القبائل وتخويفهم من هذا الدين الجديد.

أشكال الشبهات التي أثّرت حول دعوته ﷺ كثيرة؛ فمنها ما هو متعلق بموضوع الصلاة، كالشبهات التي أثاروها حول حادثة تحويل القبلة، روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس، ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجّه إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾، فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: {ما ولّاهم} عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فصلى مع النبي ﷺ رجل، ثم خرج بعد ما صلى، فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد: أنه صلى مع رسول الله ﷺ، وأنه توجّه نحو الكعبة، فتحرّف القوم، حتى توجّهوا نحو الكعبة"^(٢).

ومما لا شك فيه أن موضوع تحويل القبلة هو اختبار إلهي امتحن الله فيه قلوب الناس، فمنهم من سلم الأمر لله واستسلم لإرادته دونما اعتراض، وهذا ما صدر من الصحابة رضوان الله عليهم الذين تحولوا للقبلة الجديدة خاصة أثناء صلاتهم لمجرد شهادة أحدهم بتحويل القبلة، فروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: "بينما الناس بقاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت، فقال: «إن

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير. (ج ١٥)، ص ١٤٣.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب الصلاة. باب التوجه نحو القبلة حيث كان. حديث رقم: ٣٩٩. (ج ١)، ص ٨٨.

رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة^(١).

ومنهم من وصفهم الله بالسفهاء^(٢) الذين انقلبوا على أعقابهم، قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

ولهذا فقد أوضح الله عز وجل في ثنايا الآيات التي تحدثت عن تحويل القبلة تلك الحكمة الإلهية من ذلك الاختبار، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فما هو قد تمايز الناس بين متبع له ﷺ وبين معترض ومستهجن لهذا الفعل، ولهذا استغل أعداء الإسلام من كفار قريش واليهود والمنافقين تلك الحادثة فبدؤوا بالطعن برسالته صلى الله عليه وآله وسلم وبث الإشاعات للتقليل من أتباعه والنيل من دعوته والتشكيك بها.

فتجد "أن كفار قريش لما أنكروا تحويل القبلة قالوا: قد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم، وقالت اليهود: قد التبس عليه أمره وتحير، وقال المنافقون: ما ولّاهم عن قبلتهم! واستهزؤا بالمسلمين"^(٣).

وهناك بعض الشبهات التي كانت تثار من كفار قريش حول بعض الآيات التي كانت تنزل على النبي ﷺ، فتعيب آلهتهم وتبين أن تلك الآلهة ما أنزل الله بها من سلطان، وأنها لا تملك ضرراً ولا نفعاً، فلم يستطيعوا الدفاع عن آلهتهم إلا بإلقاء تلك الشبهات، ومثال ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ

(١) البخاري، صحيح البخاري. كتاب الصلاة. باب ما جاء في القبلة ومن لم ير الإعادة على من سهى فصلى إلى غير القبلة. حديث رقم: ٤٠٣. (ج ١)، ص ٨٩. مسلم: صحيح مسلم. كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب تحويل القبلة من القدس إلى مكة. حديث رقم: ٥٢٦. (ج ١)، ص ٣٧٥.

(٢) السفهاء: جمع، واحده سفيه، وهو الخفيف العقل وهم اليهود على قول مجاهد، أو المنافقون على قول السدي، أو كفار قريش على قول الزجاج. انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ٢)، ص ١٤٨.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ٢)، ص ١٤٨.

جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿ [الأنبياء: ٩٨] فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله؟ فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها، قال: فنزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] عيسى وعزير والملائكة^(١)، ولهذا كانت تنتزل الآيات وترد على تلك الشبهات.

كيف لا وكفار قريش قد أنكروا عقيدة البعث والنشور وقابلوها بالكذب والاستهزاء والسخرية، ودعوة الناس لعدم تصديقها، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قصة العاص بن وائل، الذي أنكر البعث بعد الموت، فأنزل الله فيه قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧-٧٨] ^(٢). فما هدفه من ضرب ذلك المثل إلا التشكيك بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم والطعن في معتقداته وأقواله.

ومن الشبهات التي أثرت حول دعوته ﷺ التعريض بالأمثال القرآنية والاستهزاء بها وإثارة البلبلة حولها، ومن ذلك ما ذكره سبحانه وتعالى في كتابه العزيز للعنكبوت والذباب والبعوضة وغيرها، فقد روى الواحدي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦] قال: وذلك أن الله ذكر آلهة المشركين فقال وإن يسلبهم الذباب شيئاً، وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: رأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أي شيء يصنع بهذا؟ فأنزل الله هذه الآية^(٣).

يقول القاسمي في تفسيره: " فما استنكره السفهاء وأهل العناد والمراء، واستغريه من أن تكون المحقرات من الأشياء ومضروباً بها المثل ليس بموضع للاستنكار والاستغراب. فالمؤمنون - الذين عادتهم الإنصاف، والعمل على العدل والتسوية، والنظر في الأمور بناظر العقل - إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمرّ الشبهة بساحته، والصواب الذي لا يرتع الخطأ

(١) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین. کتاب التفسیر. تفسیر سورة الأنبياء. حديث رقم: ٣٤٤٩. (ج ٢)، ص ٤١٦. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. تعليق الذهبي: صحيح. الواحدي: أسباب نزول القرآن. تحقيق: كمال بسيوني الزغلول. ص ٣١٥.

(٢) سبق تخريجه. انظر: ص ٢٦.

(٣) الواحدي: أسباب نزول القرآن. ص ٢٧.

حوله، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَن غلبهم الجهل على عقولهم، وغشيه على بصائرهم - فلا يتقنّون، ولا يلقون أذهانهم. أو عرفوا أنّه الحق، إلّا أنّ حب الرئاسة، وهوى الإلف والعادة، لا يخليهم أن ينصفوا ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي: فإذا سمعوه عاندوا، وكابروا، وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار^(١).

ولما كان النبي ﷺ قد انطلق في دعوته في ظل قبائل متعددة عمد الكفار إلى تحريض الناس وتخويفهم من اتباع هذه الدعوة الجديدة التي ستوقع بينهم والقبائل الأخرى العداوة والبغضاء، وأن اتباع دين محمد ﷺ سيؤلب العرب عليهم ويكون سبباً في طردهم من مكة، وسلبهم سيادة العرب، وقد ذكر القرآن الكريم تلك الشبهة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ أَهْدَىٰ مَعَكَ تُتَخَفَّ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] أي: قال مشركو قريش ومن تابعهم: إن ندخل في دينك يا محمد نتخطف من أرضنا، أي: يتخطفنا العرب من أرضنا: يعنون مكة، ولا طاقة لنا بهم، وهذا من جملة أذهارهم الباطلة، وتعللاتهم العاطلة، والتخطف في الأصل: هو الانتزاع بسرعة... ثم رد الله ذلك عليهم رداً مصدراً باستفهام التوبيخ، والتقريع فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ألم نجعل لهم حرماً ذا أمن... ثم وصف هذا الحرم بقوله: ﴿يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة، وتحمل إليه^(٢).

وإن إظهار تلك الشبهة والمناداة بها أمام الملاء علانية؛ ليشكّل الأثر البالغ في تخويف الناس، وإدخال الرعب في قلوبهم من اتباع هذا الدين الجديد.

وتلك الشبهات التي اختلقها أعداء الإسلام لها عدة أشكال: فمنها ما جاء في موضوع مستقل يرتبط بعبادة الصلاة مثل تحويل القبلة، ومنها ما جاء في بعض المعتقدات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل عقيدة البعث والنشور والتي أنكرها الكفار وحاربوها، ومنها ما جاء عقب نزول بعض الآيات القرآنية التي تقدح بعبادتهم لتلك الأصنام، وتبين سفه تلك العبادة،

(١) القاسمي: محاسن التأويل. (ج ١)، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) الشوكاني: فتح القدير. (ج ٤)، ص ٢٠٦-٢٠٧.

ومنها ما جاء عقب بعض الأمثال القرآنية التي استهجنها بعض الكفار بحجة أنها لا تليق بكلام الله.

ولكن القرآن الكريم قد رد على تلك الشبهات بعين الحقيقة، وبين أنها ضرب من ضروب التكذيب والإعراض، وأنها جزء لا يتجزأ من حرب مفتوحة على دعوته ﷺ للنيل منها وتقليل أتباعها والصد عنها.

المطلب الرابع: خلخلة الصف المؤمن وإضعاف الثقة بالقيادة

تعدّ خلخلة الصف المسلم وإضعاف الثقة بالقيادة لوناً من ألوان الحرب الإعلامية والنفسية التي شنّها الكفار على شخص النبي ﷺ وعلى ما جاء به. والهدف من وراء ذلك النيل من دعوته ﷺ، ولهذه الطريقة خطرها الكبير على سلامة الصف ونقائه، وعلى طاعة القاعدة لأمرها؛ لأن الثقة بين القاعدة والقيادة هي أساس الطاعة والاستجابة لأمره.

ولهذا فقد أفصح القرآن الكريم لنا عن كثير من المواقف التي مر بها النبي ﷺ والتي كشف لنا من خلالها عن تلك المؤامرات التي قادها الكفار لتحقيق تلك الغاية وإحداث الشق في الصف المؤمن.

وأكثر من برع في هذا الأسلوب وأتقنه حتى تحقق على أيديهم بعض النجاحات الجزئية وإحداث الخلل في وحدة الصف المؤمن هم المنافقون؛ وما ذلك النجاح والبراعة والإتقان إلا لأنهم قد عاشوا مع المسلمين وعابنهم وشاركهم في بعض الشعائر التعبدية، ولخفاء حالهم عن كثير من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

ولهذا فقد حكى القرآن الكريم عن بعض أعمالهم وأقوالهم ومحاولاتهم ومؤامراتهم لخلخلة الصف المسلم وإضعاف بنيانه، وتقليل الثقة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أبرز المواقف والقصص التي حكاها القرآن الكريم ليكشف لنا عن تلك المحاولات الخبيثة ما جاء في حادثة الإفك واتهام عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ بالزنا، والذي قد جاء على لسان زعيم

المنافقين عبد الله بن أبي وقد نزلت الآيات من سورة النور^(١) لتبرئة عائشة (رضي الله عنها) من تلك الفرية.

ومما يدل على خطر هذه الحادثة على المجتمع المسلم ما نتج عنها من خلخلة للصف، ومما يثبت ذلك ما ورد في حديث الإفك الطويل الذي رواه البخاري ومسلم والذي يثبت الاختلاف الذي وقع بين الصحابة الذين كادوا يقتتلون فيما بينهم وذلك عندما قال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: يا رسول الله أنا أعذك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتناور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا"^(٢).

وهذا الحدث الذي تم من النزاع والاختلاف بين الصحابة، هو ما كان يرمقه المنافقون وينتظرونه؛ لإضعاف شوكة المؤمنين وتحقيق التفريق بينهم والنزاع الذي هو سبيل الفشل والخسارة. ولقد تأخر الوحي في إظهار براءة عائشة رضي الله عنها،" ويقال: كان نزول براءة عائشة رضي الله عنها بعد قدومهم المدينة بسبع وثلاثين ليلة"^(٣)، ومن الفوائد التي نجنيها من تأخر الوحي في حادثة الإفك؛ أن فيها إشارة ورداً على بعض الاتهامات السابقة التي قال بها أهل الباطل من أن القرآن تقوله محمد من عنده أو تعلمه من غيره، فلو كان كما يزعمون لبادر الرسول

(١) انظر: سورة النور: ١١-٢١.

(٢) انظر: البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب { لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون... } إلى قوله { لكاذبون }. حديث رقم: ٤٧٥٠. (ج٦)، ص ١٠١. مسلم: صحيح مسلم. كتاب التوبة. باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف. حديث رقم: ٢٧٧٠.

(ج٤)، ص ٢١٣٧.

(٣) المقرئ، أحمد بن علي بن عبد القادر: إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع. تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي. الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- (ط١) ١٤٢٠هـ. (ج١)، ص ٢١٦.

بِحَلِّ الْأُزْمَةِ بآيَاتٍ تَظْهَرُ بَرَاءَةَ زَوْجَتِهِ مُبَاشَرَةً وَلَمْ يَتَأَخَّرْ لِأَكْثَرِ مِنْ شَهْرٍ^(١). وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ لَا يَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وَحَمَلَتْ حَادِثَةُ الْإِفْكَ فِي طَيَاتِهَا تِلْكَ الْآثَارَ الشَّدِيدَةَ عَلَى نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهَا قَدْ أَصَابَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى قَلْبِهِ، وَوَالِدَهَا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا فَقَدْ تَرَكْتَهُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ سَيِّمًا بَعْدَ تَدَاوُلِ الْمُنَافِقِينَ تِلْكَ الْإِشَاعَةَ وَنَشَرَهُمْ إِيَّاهَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى خَطَرَةِ الْإِشَاعَاتِ عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ وَالتِّي قَدْ تَوْدِي إِلَى تَفْرِقَتِهِ وَتَشْرِذِمِهِ.

وَلَعَلَّ تِلْكَ الْحَادِثَةَ رَغْمَ الْأَذَى وَالشَّرِّ الَّذِي قَدْ تَخَلَّلَهَا، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] فَقَدْ كَشَفَتْ تِلْكَ الْحَادِثَةَ دَخِيلَةَ الْمُنَافِقِينَ وَتَرَبَّصَهُمْ بِهَذَا الدِّينِ كُلِّ وَقْتٍ وَحِينَ، وَعَلِمَتْ الْمُسْلِمِينَ دَرْسًا مَّهِمًّا فِي ضَبْطِ أَلْسِنَتِهِمْ وَالتَّنَبُّثِ مِمَّا يَسْمَعُونَ، وَعَدَمِ نَشْرِهِ وَالْإِنْشِاقِ مَعَ الْإِشَاعَاتِ كَمَا حَدَّثَ مَعَ بَعْضِ الصَّحَابَةِ، وَلِهَذَا فَقَدْ بَيَّنَّتِ الرِّوَايَاتُ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ الْخَائِضِينَ فِي تِلْكَ الْحَادِثَةِ بِالْإِثْمِ هُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَأْسٍ النِّفَاقِ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَمَسْطُحُ بْنُ أَثَّاثَةَ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَلِهَذَا كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: "أَمَّا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مَسْطُحٌ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ"^(٢) وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ"^(٣).

وَبِهَذَا فَقَدْ تَأَثَّرَ الْمَجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ بِتِلْكَ الْإِشَاعَةِ فَخَاضَ فِيهَا مِنْ خَاضَ، وَنَجَا فِيهَا مَنْ نَجَا، وَلِهَذَا فَقَدْ تَحَقَّقَ جُزْءٌ مِنْ مَّأْرَبِ الْمُنَافِقِينَ فِي خَلْخَلَةِ الصَّفِّ وَإِحْدَاثِ الشَّقِّ فِيهِ، لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُ عَمُومِ الْمُؤْمِنِينَ ظَنَّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَثَقَنَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) انظر: الخلف، سعود بن عبد العزيز: دحض دعوى المستشرقين أن القرآن من عند النبي صلى الله عليه وسلم. غراس للنشر والتوزيع. ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) يستوشيه: أي يستخرج الحديث بالبحث عنه. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ١٥)، ص ٣٩٣.

(٣) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب { إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم }. حديث رقم: ٤٧٥٧. (ج ٦)، ص ١٠٧. مسلم: صحيح مسلم. كتاب التوبة. باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف. حديث رقم: ٢١٧٠. (ج ٤)، ص ٢١٣٧.

ولقد عاب القرآن الكريم على إفشاء الإنسان لكل ما يسمعه من الأخبار فيتحدث به وينشره دون التثبت من صحته، بل وأرشد إلى ضرورة إيصال تلك الأخبار لذوي الاختصاص وأولي الأمر، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ [النساء: ٨٣] " قيل: هم المنافقون، وقيل: قوم من ضعفاء المسلمين، كانوا إذا بلغهم خبر عن السرايا والجيوش أو غير ذلك أذاعوا به، أي تكلموا به وشهروه قبل أن يعلموا صحته، وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين مع ما في ذلك من العجلة وقلة التثبت، فأنكر الله ذلك عليهم" (١).

ومما حكاه القرآن الكريم عن أفعال المنافقين والتي مرت في المباحث السابقة (٢) والتي سعوا من خلالها إلى إضعاف ثقة المؤمنين بنبيهم ﷺ، وسأذكرها هنا بإيجاز، فمنها ما كانوا يتهمونه به من أقوال على سبيل السخرية والاستهزاء كقولهم إنه أذن، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، واستهزأؤهم بحديثه ووعظه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦]، ومن أسوأ أعمال المنافقين والتي كان لها الأثر البارز في خلخلة الصف هو تخذيل المسلمين عن الجهاد في سبيل الله وتنفيرهم منه، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١] وقد جاء هذا التخذيل منهم في غزوة تبوك والتي كانت في أشهر شديدة الحر وبعيدة المسافة وفي وقت طيب الثمار والظلال (٣)، وقد تحدث القرآن في أكثر من موضع عن سياسة المنافقين في التخذيل والتثبيط عن الخروج للجهاد مع النبي ﷺ وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۚ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ١٨]، ومنها: اختلاقهم الأعدار الكاذبة كي يتخلفوا عن الجهاد، ومثاله ما جاء في قوله

(١) ابن جزري، محمد بن أحمد: التسهيل لعلوم التنزيل. تحقيق عبد الله الخالدي. دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت. (ط١) ١٤١٦ هـ. ص ٢٠١.

(٢) انظر: مبحث: الإعراض والمعاندة من قبل المنافقين. ص ٣٤. ومبحث السخرية والاستهزاء من قبل المنافقين. ص ٤٦.

(٣) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. (ج٤)، ص ١٨٩.

تعالى: ﴿ وَكَسَفْنَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ثم فرحهم بالعودة عن تكاليف الجهاد وعدم المشاركة بها، قال تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٨١]، ومنها: انسحابهم مع ثلث الجيش في غزوة أحد واختلاف الصحابة في شأنهم، فنزلت الآيات في قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَعْتَيْنَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [النساء: ٨٨] ^(١)، ومنها: تأمرهم مع يهود بني النضير حتى وصفهم القرآن بإخوانهم، فالأخوة التي بينهم هي أخوة الكفر ولهذا جعلهم إخواناً لأن الكفر يجمعهم ^(٢)، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الحشر: ١١].

ومن المواقف التي حدث فيها الاقتتال بين الصحابة، والترشق بالنعال والضرب بالأيدي بسبب هؤلاء الزمرة من المنافقين، وتنزل فيها قول الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك: " قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، «فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة ^(٣)»، فلما أتاه النبي ﷺ، فقال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، فشتمه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: {وإن طائفتان من

(١) سبق تخرجه، انظر: صفحة ٣٨.

(٢) انظر: الصلابي، علي محمد: السيرة النبوية - عرض وقائع وتحليل أحداث. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان (ط٧)، ١٤٢٩هـ، ص ٥٥٩.

(٣) هُوَ جَمْعُ سَبْخَةٍ وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي تَغْلُوهَا الْمُلُوحَةُ وَلَا تَكَادُ تُثْبِتُ إِلَّا بَعْضَ الشَّجَرِ. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج٣)، ص ٢٤.

المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} [الحجرات: ٩]"^(١)، وها هو القرآن ينتزل ليفضح لنا خبث سرائر هؤلاء المنافقين ومكرهم بالإسلام وأهله.

ومن المواقف التي سجلها القرآن الكريم، والتي فضح بها أقوالهم بالسرّ ضد النبي ﷺ وسبّه ولعنه، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۖ ﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذْلَ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٧-٨]. ومعنى الآية: "﴿ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ أي للانصار. ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ﴾ يعنون فقراء المهاجرين. ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بيده الأرزاق والقسم. ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك لجهلهم بالله. ﴿ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذْلَ ﴾. روي أن أعرابياً نازع أنصارياً في بعض الغزوات على ماء، فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكى إلى ابن أبيّ فقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا، وإذا رجعنا إلى المدينة فليخرجن الأعز منها الأذل، عني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ. " (٢).

ولهذا فضح القرآن مقولته وكذبه، وبرأ الله من سمع مقولته وصدّقه، روى البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم قال: "خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، وقال: لنن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، قالوا: كذب زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) البخاري: صحيح البخاري. كتاب الصلح. باب ما جاء في الإصلاح بين الناس إذا تقاسدوا. حديث رقم: ٢٦٩١. (ج٣)،

ص ١٨٣. مسلم: صحيح مسلم. كتاب الجهاد والسير. باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله وصبره على أذى

المنافقين. حديث رقم: ١٧٩٩. (ج٣)، ص ١٤٢٤.

(٢) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. (ج٥)، ص ٢١٥.

فوقع في نفسي مما قالوا شدة، حتى " أنزل الله عز وجل تصديقي في: {إذا جاءك المنافقون} [المنافقون: ١]"^(١).

ولأجل أفعال المنافقين تلك وأثرها على الصف المؤمن في خلطة تماسكه وبنائه، فقد جاء التهديد الإلهي لهم في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠] يقول أبو السعود: "{لئن لم ينته المنافقون { عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للإيذاء {والذين في قلوبهم مرض} عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه {والمرجفون في المدينة} من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الأراجيف الملفقة المستتبعة للأذية وأصل الإرجاف التحريك من الرجفة التي هي الزلزلة وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة {لنغريَنَّكَ بهم} لنأمرنك بقتالهم وإجلالهم أو بما يضطربهم إلى الجلاء"^(٢).

ومن المواقف التي سطرها القرآن الكريم في محاولة الاقتتال بين الصحابة وخلطة الصف المسلم، والذي كان على يد اليهود في التحريش بين الأوس والخزرج عندما رأى شاس بن قيس اليهودي مجلسهم وما عليه من المحبة والوئام، فأرسل إليهم من يذكرهم بأيام الجاهلية والتي منها يوم بُعثت تلك الحادثة التي انتصر فيها الأوس على الخزرج، فأخذ ينشدهم الشعر حتى أخذتهم الحمية وغضب الفريقان وكادوا أن يقتتلوا، حتى بلغ الأمر للنبي ﷺ فجاءهم وقال : (يا معشر المسلمين، الله الله، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) فاستجابوا لأمر رسول الله ﷺ وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا سامعين مطيعين له، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ^(٣).

(١) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب {وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم...}. حديث رقم: ٤٩٠٣. (ج٦)، ص ١٥٣.

مسلم: صحيح مسلم. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. حديث رقم: ٢٧٧٢. (ج٤)، ص ٢١٤٠.

(٢) أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. دار إحياء التراث العربي، بيروت. (ج٧)، ص ١١٥.

(٣) انظر: الواحدي: أسباب نزول القرآن. ص ١١٧. الطبري: جامع البيان. (ج٥)، ص ٦٢٧. الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن. (ج٣)، ص ١٥٨.

ولهذا أنقذ رسول الله ﷺ الموقف، وأصلح بينهم، وباءت محاولتهم بالفشل، وسلم الله الصحابة من هذا الكيد الذي نصب لهم.

ومن الآيات القرآنية التي تظهر لنا خبث أعداء الإسلام في النيل من رسول الله ﷺ وإضعاف الثقة به وتشاؤمهم من وجهه الكريم، وادعائهم أنه لا يأتي بخير، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] يقول البغوي في تفسيره لهذه الآية: "نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم قالوا لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه. فقال الله تعالى: وإن تصبهم يعني: اليهود حسنة أي خصب ورخص في السعر، يقولوا هذه من عند الله، لنا، وإن تصبهم سيئة يعني: الجذب وغلاء الأسعار يقولوا هذه من عندك أي: من شؤم محمد وأصحابه، وقيل: المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر، وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أحد، يقولوا هذه من عندك أي: أنت الذي حملتنا عليه يا محمد، فعلى هذا يكون هذا من قول المنافقين، قل، لهم يا محمد، كل من عند الله، أي: الحسنة والسيئة كلها من عند الله، ثم عيرهم بالجهل فقال: فمال هؤلاء القوم يعني: المنافقين واليهود، لا يكادون يفقهون حديثا أي: لا يفقهون قولاً، وقيل: الحديث هاهنا هو القرآن أي: لا يفقهون معاني القرآن"^(١).

ومن الأمور التي كشفها القرآن الكريم عن هذه الزمرة الخبيثة؛ مناجاتهم فيما بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ، مما يكون سبباً لإدخال الريبة والخوف في قلوب أتباعه وأصحابه، كما وحذر المؤمنين من التناجي في الحرام كفعل هؤلاء المنافقين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠] ^(٢).

وبعد هذا العرض لبعض آيات القرآن الكريم، والتي كشفت لنا خطورة المنافقين وداء النفاق على المجتمع المسلم في إحداث الشق وإضعاف الثقة بالقيادة، ولهذا فقد عرّى القرآن الكريم

(١) البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن. (ج ١)، ص ٦٦٥.

(٢) انظر: الزحيلي: التفسير المنير. (ج ٢٨)، ص ٣١.

حقيقة قلوبهم ونفسيّاتهم الخبيثة، فكشف لنا أقوالهم واتهاماتهم لشخص النبي ﷺ وما كانوا يثيرونه من إشاعات مغرضة باطلة، والتي بذاتها تضعف الثقة بتلك القيادة.

وما حديث القرآن عن ظاهرة النفاق وأعمال المنافقين؛ إلا لتتقية الصف المسلم وتحذير المسلمين من داء النفاق وعدم الوقوع به، أو تصديق ما يصدر عن أهله من أقوال، سيما أن بعض المسلمين كانوا يسمعون لأحاديثهم وقصصهم ويصدقونها فيطيعونهم، ومنهم نمّامون يسمعون الأحاديث فينقلونها إليهم، قال تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ هُمْ^١ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]^(١)، ولهذا يجب تتقية الصف من أولئك الذين يضمرون خبث نواياهم وتربصهم بهذا الدين وأتباعه، وكان لابد من تحذير بعض الجهلة من المسلمين من خطر هؤلاء، ولهذا كثرت الآيات القرآنية التي تتحدث عنهم وعن صفاتهم.

هذا هو دور المنافقين الخطير في خلخلة الصف وإضعاف الثقة بالقيادة، فقد ركز القرآن كثيراً على هذه الزمرة واصفاً أساليبهم وأقوالهم وصفاتهم، وقد سمى سورة في القرآن الكريم باسمهم، وما ذلك إلا ليحذر المؤمنون منهم، ومن الوقوع في حبال صيدهم، ولقد نجح هؤلاء في بعض المواقع في إحداث الفوضى في المجتمع المسلم، ولهذا ركز القرآن على محاولاتهم تلك ومؤامراتهم أكثر من غيرهم من أعداء الإسلام من كفار قريش أو اليهود أو غيرهم؛ لما لهم من خطر كبير على أمن المجتمع واستقراره.

(١) انظر: الزمخشري: الكشاف. (ج٢)، ص ٢٧٧.

المبحث الخامس

التخويف والتهديد

لَمَّا لَمْ يَفْلَحِ الْكَافَرُ فِي صَدِّ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ دَعْوَتِهِ، عَمَدُوا إِلَى تَخْوِيفِهِ وَتَهْدِيدِهِ وَإِيقَاعِ الْأَذَى بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ وَتُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٣٦] ^(١)، ومعنى ذلك: "أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف. وفي هذا تهكم بهم، لأنهم خَوْفُهُ ما لا يقدر على نفع ولا ضرر... {بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} أراد: الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه" ^(٢).

ومن صور التهديد والوعيد والتخويف التي مورست على النبي ﷺ التهديد بالضرب والإيذاء الجسدي، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم، فقال: واللوات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطاء على رقبته، قال: فما فجنهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخنقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» قال: فأنزل الله عز وجل - لا ندري في حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه -: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ۚ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۚ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ اهْدَىٰ ۚ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ ۚ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۚ ﴾ [العلق: ٦-١٣] - يعني أبا جهل - ^(٣)، فباعت محاولة أبي جهل بالفشل.

ومن صور التهديد والوعيد والإيذاء التي مورست ضد النبي ﷺ، تهديده بالنفي والطرده من مكة وذلك عبر ما يمارسونه من إيذاء وتضييق عليه مما يدفعه للخروج والفرار من مواجهتهم قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۚ وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦] يقول الزمخشري: "وإن كاد أهل مكة {لَيَسْتَفِزُّوكَ} ليزعجونك

(١) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج ٢٠)، ص ٢١٠.

(٢) الزمخشري: الكشاف. (ج ٤)، ص ١٢٩.

(٣) مسلم: صحيح مسلم. كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب قوله { إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى }. حديث رقم: ٢٧٩٧. (ج ٤)، ص ٢١٥٤.

بعداوتهم ومكرهم مِنَ الْأَرْضِ مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ {وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ} لا يبقون بعد إخراجك إِلَّا زَمَانًا قَلِيلًا فإن الله مهلكهم وكان كما قال، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجهم بقليل^(١)، واستعمال الكلمة القرآنية "يستفزونك" توحى وتلقي في ظلالها معنى الطرد وهي "من استفزه أي: طلب منه النهوض والخفة إلى الفعل، كما تقول لولدك المتناقل: (فز) أي: فُزْ وانهض، والمراد: يستحثونك على الخروج {مِنَ الْأَرْضِ} من مكة بإيذائهم لك، وعنتهم معك ليحملوك على الخروج، ويكرهوك في الإقامة بها"^(٢). وفي آية أخرى أثبت الله عز وجل مكر قريش وكفارهم وكيدهم بالنبي ﷺ وإخراجه ونفيه من وطنه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ولم يكن هذا التهديد والتخويف بدعاً من أساليب قريش، بل إن المكذبين لدعوات الأنبياء في كل زمان قد مارسوا هذا اللون من الأذى والابتلاء لأنبيائهم، وقد ذكر القرآن الكريم تخويف بعض تلك الأقوام أنبياءهم وتهديدهم، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]، ومنها تلك الدعوة الصريحة التي نادى بها قوم لوط عليه السلام بإخراجه وطرده من دياره لمجرد دعوتهم إلى الله، فقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلَا تَؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٥٦] وغير ذلك من الآيات التي تظهر لنا ذلك الأسلوب في محاربة الأنبياء ودعوتهم.

(١) الزمخشري: الكشاف. (ج ٢)، ص ٦٨٥.

(٢) الشعراوي: تفسير الشعراوي الخواطر. (ج ١٤)، ص ٨٦٩٣.

المبحث السادس

الطرد والمطاردة

لا شك في أن خروج النبي ﷺ من مكة لم يكن بإرادته وحب منه؛ بل كان بتوجيه من الله عز وجل بعد إصرار قريش على التكذيب والمعاندة، وبعد بلوغ أذاها له ولأصحابه مبلغاً عظيماً، وما كان خروجه إلا بعد صراع طويل مع الباطل، واستهداف لدعوته وأصحابه.

ولمّا لم تكن مكة مناسبة لاحتضان هذه الدعوة أو تركها وشأنها، عمد الرسول ﷺ إلى الخروج من مكة وحث أصحابه عليه، ووضع القواعد لتأسيس دولة قادرة على مواجهة التحديات، فهجرته ﷺ "كانت نظاماً لتأسيس دولة، ولأنه نظام يجب أن يتحقق، ولأن الإسلام جاء لإقامة دولة تحكم بأمر الله ونهيه، وتقيم العدل، وترفع الجور، وما كانت تتمكن من ذلك، وهي خاضعة لعبدة الأوثان، بل كان لابد من الهجرة حيث تكون القوة، وحيث يتمكن من إقامة الدولة" (١).

وقد ذكر القرآن الكريم محاولات الطرد والإخراج من مكة صراحة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وحيث إنهم تأمروا عليه ﷺ فقال قائلهم: "أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم" (٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى مؤامرات الإخراج والطرد خارج مكة في موضع آخر، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] وقد ذكر الطبري اختلاف أهل التأويل في تفسير هذه الآية لكنه ذكر القول الأول بالصواب عنده، ورد على من قال إن المقصود بالآية هم اليهود الذين حاولوا إخراج النبي ﷺ من المدينة، فقال: "وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول قتادة ومجاهد، وذلك أن قوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ} في سياق خبر خبر الله عز وجل عن قريش وذكره إياهم، ولم يجر لليهود قبل ذلك ذكر، فيوجه قوله {وَإِنْ كَادُوا} إلى أنه خبر عنهم، فهو بأن

(١) أبو زهرة، محمد بن أحمد: زهرة التفاسير. دار الفكر العربي. (ج٦)، ٣١١١.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج١٣)، ص٤٩٥. السمعاني: تفسير القرآن. (ج٢)، ص ٢٦٠. البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن. (ج٣)، ص٣٤٩. الزمخشري: الكشاف. (ج٢)، ص ٢١٥.

يكون خبراً عمن جرى له ذكر أولى من غيره^(١). وفي تفسير البغوي: " وقال مجاهد وقتادة: الأرض أرض مكة والآية مكية، همّ المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه، حتى أمره بالهجرة فخرج بنفسه ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه وهذا أليق بالآية؛ لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية"^(٢).

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣] "يعني أهل مكة الذين أخرجوك من مكة إلى المدينة"^(٣)، ولهذا تم تنفيذ أمر الله عز وجل بخروجه من مكة ومعه أبو بكر الصديق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال: " أما والله لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلي وأكرمها على الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت "^(٤).

هذا هو دأب الظالمين في مواجهة الأنبياء ومعاداتهم وحصارهم، ومحاولات طردهم وإخراجهم من وطنهم؛ حتى يضعفوا تأثيرهم في الواقع الذي يعيشونه، وقد علم النبي ﷺ بذلك في أول أمر دينه حين أخبره بذلك ورقة بن نوفل، وبين له عقبات الدعوة التي سيلقاها في طريقه، وعنجهية قومه وأذاهم، حيث قال له: " يا ليتني فيها جذعاً، أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب^(٥) ورقة أن توفي^(٦)، فكان النبي ﷺ مدركاً لذلك ومستعداً له في كل حين، ثم إن المشركين لم يكتفوا بإخراج النبي ﷺ من مكة والتأمر عليه بالسجن وربط وثاقه، أو بالقتل والتخلص منه، بل لحقوا به وطاردوه وحاولوا القبض عليه؛ للتخلص منه ﷺ، وقد أشار القرآن الكريم لهذه المطاردة في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

(١) الطبري: جامع البيان. (ج١٧)، ص ٥١٠.

(٢) البغوي: معالم التنزيل. (ج٣)، ص ١٤٨.

(٣) السمرقندي: بحر العلوم. (ج٣)، ص ٣٠٠.

(٤) أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى: مسند أبي يعلى. تحقيق: حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث، دمشق. (ط١) ١٤٠٤ هـ. حديث رقم: ٢٦٦٢. (ج٥)، ص ٦٩. حكم المحقق: رجاله رجال الصحيح خلا محمود بن خدّاش وهو ثقة.

(٥) لم ينشب: أي لم يلبث. انظر ابن منظور: لسان العرب. (ج١)، ص ٧٥٧.

(٦) البخاري: صحيح البخاري. كتاب التعبير. باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم. حديث رقم: ٦٩٨٢. (ج٩)، ص ٢٩.

الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[التوبة: ٢٩]﴾. روى مسلم في صحيحه عن أبي بكر رضي الله عنه قال: "نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما" (١).

ولعل في متابعة ومطاردة سراقه بن مالك لرسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق، لشاهد ودليل على تلك القضية، روى البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه قال: "وأتبعنا سراقه بن مالك فقلت: أتيننا يا رسول الله. فقال: "لا تحزن إن الله معنا" فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فارتطمت به فرسه إلى بطنها -أرى- في جلد من الأرض... فقال: إني أراكما قد دعوتما علي فادعوا لي فالله لكم أن أرد عنكما الطلب، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم فنجا فجعل لا يلقى أحداً إلا قال: قد كفيتكم ما هنا فلا يلق أحداً إلا رده. قال: ووفى لنا" (٢).

وما كان طرد قريش للنبي ﷺ وأصحابه من مكة وإخراجهم وملاحقتهم إلا بسبب إيمانهم الذي يعدّ تهديداً لمصالحها وزعزعة لسلطانها، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١] (٣).

(١) مسلم: صحيح مسلم. كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. حديث رقم: ٢٣٨١. (ج٤)، ص ١٨٥٤.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام. حديث رقم: ٣٦١٥. (ج٤)، ص ٢٠١.

(٣) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج٢٣)، ص ٣١٠.

المبحث السابع

الحصار ومحاولة السجن

من أنواع وأشكال الابتلاء تعرض المؤمن للسجن أو الحصار، وسجن المؤمن إنما هو سجن لأفكاره ومعتقداته مما يؤثر عليه سلباً أو إيجاباً.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى تلك المحاولات للنيل من شخص رسول الله ﷺ بالسجن وذكر ذلك صراحة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ^(١) وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ^٢ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقد ذكر كثير من المفسرين^(١) أن معنى قوله: {ليثبتوك} هو الحبس والوثاق. وهذا المعنى هو ما أكدته المعنى اللغوي لتلك الكلمة، قال ابن منظور: "فَأَنْتَبَهُ أَي حَبَسْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ ثَابِتاً فِي مَكَانِهِ لَا يَفَارِقُهُ"^(٢).

ولقد ذكر البغوي في تفسيره لهذه الآية تأمر سادة قريش على النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: " فقال أبو البختري: فأرى أن تأخذوا محمداً فتحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه، وتترصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه كما هلك من قبله من الشعراء"^(٣).

ولعل الهدف من وراء الحبس هو تقييده ﷺ عن التحرك بالدعوة إلى الله، "فحين علم كفار قريش أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد بايعوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن ينصروه؛ هنا فزع كفار قريش وأرادوا أن يضعوا حداً لهذه المسألة، فاجتمعوا في دار الندوة يريدون أن يجدوا حلاً يوقف رسالة رسول الله ﷺ، ودخل عليهم أعرابي فوجدتهم يتشاورون؛ وقالوا لننثبته، والتنثيب ضد الحركة، وقوله: «ليثبتوك» أي ليقيدوا حركتك في الدعوة؛ لأن هذه الدعوة تزلزلهم."^(٤).

(١) انظر: الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن. (ج١٣)، ص ٤٩١-٤٩٢. الثعلبي، أحمد بن محمد: الكشف والبيان عن تفسير القرآن. (ج٤)، ص ٣٤٩. البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن. ج ٢، ص ٢٨٨. وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج٧)، ص ٣٩٧.

(٢) ابن منظور: لسان العرب. (ج٢)، ص ٢٠.

(٣) البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن. (ج٢)، ص ٢٨٨-٢٩٩.

(٤) الشعراوي: تفسير الشعراوي (الخواطر). (ج٨)، ص ٤٦٨١.

ولقد نَجَّى الله عز وجل نبيه ﷺ من هذا المكر إلا ما كان من الحصار في شعب أبي طالب^(١)، "ولقد فرضوا عليهم المقاطعة التامة حيث عزلوه عن الناس ومنعوا عنهم الطعام والشراب والبيع والشراء حتى الزواج، حتى اضطروا إلى أكل المخلفات وأوراق الشجر، لذلك أمرهم الله بالهجرة"^(٢).

ولذا لم يتحقق الابتلاء بالسجن، وباء مكرهم بالفشل، ولم يبق لهم إلا محاولات الأذى والاضطهاد وسياسة التجويع، والذي تمثل بالحصار والمقاطعة، ولهذا "حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة آذاه قومه وهموا به، فقامت بنو هاشم وبنو المطلب؛ مسلمهم وكافرهم، دونه، وأبو أن يسلموه، فلما عرفت قريش أن لا سبيل إلى محمد ﷺ معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب أن لا ينكحهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم، وعمد أبو طالب فأدخلهم الشعب شعب أبي طالب في ناحية من مكة، وأقامت قريش على ذلك من أمرهم في بني هاشم وبني المطلب سنتين أو ثلاثاً، حتى جهدوا جهداً شديداً"^(٣).

وروى البخاري في صحيحه ما يشير إلى تحالف قريش على إخراج النبي ﷺ وقد كتبوا الصحيفة التي تحوي مقاطعة بني هاشم والمطلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر، وهو بمنى: «نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر» يعني ذلك المحصب^(٤)، وذلك أن قريشاً وكنانة، تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب، أو بني المطلب: أن لا يناكحهم ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم^(٥).

(١) انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. (ج ١٠)، ص ٢.

(٢) الشعراوي: تفسير الشعراوي (الخواطر). (ج ١٨)، ص ١١٠٤٢.

(٣) انظر: البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي: السنن الكبرى. باب إعطاء الفء على الديوان ومن يقع به. رقم الحديث: ١٣٠٧٦، (ج ٦)، ص ٥٩٤.

(٤) باب المحصب: فيه عائشة قالت: إنما كان منزل ينزله النبي عليه السلام، ليكون أسمع لخروجه. يعنى بالأبطح. وفيه: ابن عباس، قال: ليس التحصيب بشيء، إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ. المحصب: هو الأبطح، وهو المعرس، وهو خيف منى المذكور في حديث أبي هريرة، وقول عائشة وابن عباس: (إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ) يدل أنه ليس من مناسك الحج، وأنه لا شيء على من تركه. انظر: ابن بطال: أبو الحسن علي بن خلف: شرح صحيح البخاري لابن بطال. تحقيق: ياسر بن إبراهيم. مكتبة الرشيد، السعودية، (ط ٢) ١٤٢٣ هـ، (ج ٤)، ص ٤٢٩. ويقول ابن منظور: والخيف: ما ارتفع عن موضع مجرى السيل ومسيل الماء وانحدر عن غلظ الجبل.. ومنه قيل مسجد الخيف بمنى لأنه في خيف الجبل. ابن سيده: وخيف مكة موضع فيها عند منى، سمي بذلك لانحداره عن الغلظ وارتفاعه عن السيل. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ٩)، ص ١٠٢-١٠٣.

(٥) البخاري: صحيح البخاري. كتاب الحج. باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم مكة. (ج ٢)، ص ١٤٨. حديث رقم ١٥٩٠.

كما ذكرت كتب السيرة^(١) هذه الحادثة المرة التي تمثلت بحصار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الكرام قرابة ثلاث سنوات، لاقوا فيها أشد ألوان الأذى والاضطهاد والجوع والعذاب.

(١) انظر: الواقدي، محمد بن عمر بن واقد: المغازي. تحقيق مارسدن جونز. دار الأعلمي، بيروت. (ط٣) ١٩٨٩م. (ج٢)، ص٨٢٨. البيهقي، أحمد بن الحسين: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٠٥ هـ. (ج٢)، ص٣١١. الربيعي، محمد بن محمد بن أحمد: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير. تعليق: إبراهيم محمد رمضان. دار القلم، بيروت. (ط١) ١٩٩٣م. (ج١)، ص١٤٩. ابن كثير، إسماعيل بن عمر: السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير). تحقيق: مصطفى عبد الواحد. دار المعرف للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. ١٣٩٥ هـ. (ج٢)، ص٤٣.

المبحث الثامن

الإيذاء الجسدي ومحاولات الاغتيال

منذ أن أطلق النبي ﷺ العنان لدعوته الجديدة في مكة قوبل بالرفض والعناد، وبذل المشركون جلّ طاقاتهم لوأد هذه الدعوة التي سلبتهم وجودهم، من هنا عمد المشركون إلى اللجوء إلى كافة الوسائل والأساليب الهادفة إلى إنهاء دعوته ﷺ فمن التكذيب والاستهزاء والسخرية والتعنيف إلى التشهير والطعن بشخصه ﷺ وبدعوته، وتخويفه وتهديده وغيرها من تلك الأساليب. وحينما عجز المشركون عن القضاء على دعوة محمد ﷺ من خلال تلك الأساليب الخبيثة عمدوا إلى محاولة قتله وإيذائه، وليس ثمة شك أن رسولنا الكريم هو واحد من الرسل الذين تعرضوا لمثل ما تعرض، قال سبحانه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ^ط وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ^ط وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ^ط فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، ومعنى الآية "وهمت كل أمة من هذه الأمم المكذبة رسلها، المتحيزة على أنبيائها، برسولهم الذي أرسل إليهم ليأخذه فيقتلوه"^(١)، فالقتل أو محاولاته والغدر بالنبي المرسل هو دأب الظالمين والفجرة في كل زمان ومكان بعد استفادهم كل طرق التخلص من الدعوة وصاحبها.

ولهذا بدأ الكفار بالتخطيط والعمل على التخلص من شخصه ﷺ، وقد أشار القرآن الكريم إلى محاولات القتل والاغتيال والتي قد ظهرت جلياً من كفار قريش تارة ومن اليهود والمنافقين في المدينة المنورة تارة أخرى.

(١) الطبري: جامع البيان. (ج ٢١)، ص ٣٥٣. وانظر: مقاتل، أبو الحسن مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل بن سليمان. دار إحياء التراث - بيروت، (ط ١) ١٤٢٣ هـ. (ج ٣)، ص ٧٠٥. البغوي، الحسين بن مسعود: معالم التنزيل في تفسير القرآن. (ج ٧)، ص ١٣٩. وأيضاً: الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط ١)، ١٤١٨ هـ. (ج ٥)، ص ١٠٤.

المطلب الأول: الإيذاء الجسدي ومحاولات القتل من قبل المشركين

ذكر القرآن الكريم في آية جامعة مانعة أساليب المكر والخداع التي استعملها الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للإيقاع به والنيل منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] فالآية قد ذكرت صراحة محاولات القتل.

وقد ذكر الطبري وغيره في تفسير تلك الآية قصة تأمر سادة قريش على قتل النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة والتي اقترح فيها أبو جهل بأن يؤخذ من كل قبيلة شاباً قوياً فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل^(١).

ومن ضروب الإيذاء الجسدي الذي تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم هو ما ذكره القرآن الكريم من فعل امرأة بلغت فيها الكراهة والحقد مبلغها من رسول الله ﷺ، وهي أم جميل زوجة أبي لهب والتي ذكرتها سورة المسد بقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] وقد ذكر المفسرون معنيين لهذه الآية: فمنهم من قال إنها كانت تضع الشوك في طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل دخوله المسجد كي يتعثر بها وتؤذيه^(٢). ومنهم من قال: أنها كانت تمشي بالنميمة فسمى النميمة حطباء؛ لأنها تلقي بين الناس العداوة والبغضاء، وكانت تمشي بالنميمة في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه^(٣).

ومن محاولات القتل التي جرت على يد مشركي قريش ما كان يوم أحد، وما تعرض له النبي ﷺ من محاولة القتل بعد نزول الرماة عن الجبل والتفاف المشركين خلف صفوف المسلمين، وما تلا ذلك من اضطراب في صفوفهم وانسحاب بعضهم، حتى أحاطوا بالنبي ﷺ من كل جانب

(١) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج١٣)، ص٤٩٥. الواحدي: علي بن أحمد: الوسيط في تفسير القرآن المجيد. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون. دار الكتب العلمية، بيروت. (ط١) ١٤١٥هـ. (ج٢)، ص٤٥٤. الخازن، علاء الدين علي بن محمد: لباب التأويل في معاني التنزيل. تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت (ط١) ١٤١٥هـ. (ج٢)، ص٣٠٨. البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن. (ج٢)، ص٢٨٨-٢٨٩. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: لباب النقول في أسباب النزول. تحقيق: أحمد عبد السلام. دار الكتب العلمية، بيروت. ص٩٧.

(٢) انظر: الطبري: جامع البيان. (ج٢٤)، ص٦٧٨. مقاتل: تفسير مقاتل. (ج٤)، ص٩١٤. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. (ج٨)، ص٥١٥.

(٣) انظر: السمرقندي: بحر العلوم. (ج٣)، ص٦٣٢. الواحدي: الوسيط في تفسير القرآن المجيد. (ج٤)، ص٥٦٩. الرازي: مفاتيح الغيب. (ج٣٢)، ص٣٥٣.

ليقتلوه، فأصيب النبي ﷺ وسال الدم من وجهه الشريف، فروى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كُسرت ربايعيته^(١) يوم أحد، وشج^(٢) في رأسه، فجعل يسלט^(٣) الدم عنه ويقول: " كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا ربايعيته وهو يدعوهم إلى الله! فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾"^(٤) [آل عمران: ١٢٨]. وذكر ابن هشام في سيرته تفاصيل هذه الرواية وسرد القصة لنا.^(٥)

وأشار القرآن الكريم إلى محاولة القتل هذه في موضع آخر وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتَيْنَاكُمُ غَمًّا بَغْماً﴾ [آل عمران: ١٥٣] قال الطبري: "عن قتادة في قوله {غَمًّا بَغْمًا} قال الغم الأول: الجراح والقتل، والغم الثاني: حين سمعوا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قد قُتل فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل وما كانوا يرجون من الغنيمة"^(٦).

كما أشارت سورة الأحقاف وسورة الجن لصورة أخرى من صور الإيذاء الجسدي وهو ما تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف، حيث "اجتمع عليه الناس فوقفوا له سماطين - أي صفيين - وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه ورجموا عراقبيه^(٧) حتى اختضب نعلاه بالدماء... ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة وأقام فيها أياما... وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفراً من الجن ذكرهم في موضعين من القرآن في سورة الأحقاف وسورة الجن... وكان هذا الحادث نصراً آخر أمدّه الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوته... أمام هذه النصر، وأمام هذه

-
- (١) الرباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا بين الثنية والنانب. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج٨)، ص ١٠٨.
- (٢) الشَّجُّ في الرأس خاصة في الأصل، وهو أن تضربه بشيء فتجرحه فيه وتشفّه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء. السابق: (ج٢)، ص ٣٠٤.
- (٣) يسלט: يخرج بيده وسلنت المرأة الخضاب عن يدها إذا مسحته وألقته، سلنت: أماطه. انظر: السابق. (ج٢)، ص ٤٥.
- (٤) مسلم: صحيح مسلم. كتاب الجهاد والسير. باب غزوة أحد. حديث رقم: ١٧٩١. (ج٣)، ص ١٤١٧.
- (٥) انظر: ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب: السيرة النبوية. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (ط٢)، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م. باب ما لقيه الرسول يوم أحد. (ج٢)، ص ٧٩-٨٠.
- (٦) الطبري: جامع البيان. (ج٧)، ص ٣٠٦.
- (٧) عراقيب جمع عرقوب وهو: ما ضم أسفل الساق والقدم... وهو عصب مؤثّر خلف الكعبين. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج١)، ص ٥٩٤.

البشارات، أفضعت سحابة الكآبة والحزن واليأس، التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطروداً مدحوراً، حتى صمّم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجد وحماس. وحينئذ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشاً. فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه^(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا^ط﴾ [الأحقاف: ٢٩] وأيضاً: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

وقد كان هذا الابتلاء الذي تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف من أشد ما لاقاه من قومه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، قال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً^(٢)."

لقد حاول المشركون إطفاء نور دعوة الله في مهدها بكل ما أوتوا من قوة، فاجتمعوا معاً وخططوا لكل لون من ألوان الأذى والضرر ليلحقوه بالرسول ﷺ وأصحابه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا^ط﴾ [الجن: ١٩] وذكر الطبري في هذه الآية

(١) المباركفوري، صفى الرحمن: الرحيق المختوم. دار الهلال، بيروت. ص ١١٣-١١٥. وانظر: السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: عمر عبد السلام السلمي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. (ط ١) ١٤٢١ هـ. (ج ٤)، ص ٢٤.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب: بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم: ٣٢٣١، (ج ٤)، ص ١١٥. مسلم: صحيح مسلم. كتاب الجهاد والسير. باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم. حديث رقم: ١٧٩٥. (ج ٣)، ص ١٤٢٠.

عدة أقوال، وبعدها قال: "وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: ذلك خبر من الله عن أن رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم لما قام يدعوه كادت العرب تكون عليه جميعاً في إطفاء نور الله... قال ابن زيد: {كادوا يكونون عليه لبداً} جميعاً... واللبد الشيء الذي بعضه فوق بعض" (١).

المطلب الثاني: محاولات اغتيال الرسول ﷺ وقتله من قبل اليهود

مما لا شك فيه أن محاولات إيذاء النبي ﷺ وقتله لم تكن مقتصرة على مشركي مكة، بل عمد اليهود ومنذ أن دخل النبي ﷺ إلى المدينة، إلى محاولة قتله وإيذائه، وحينما " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير ليستعينهم على دية العامريين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري، فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمن رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه! فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فأتى رسول الله ﷺ الخبر فانصرف عنهم، فأنزل الله عز ذكره فيهم وفيما أرادوه وقومه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: ١١] (٢).

وقد جاء التعبير في الآية السابقة ببسط اليد بالقتل إلى المؤمنين كافة رغم أن المقصود هو شخص رسول الله، والسبب في ذلك كما يقول الشعراوي: "إن بسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدي المؤمنين كلهم لأنه لا يستقيم أمر المؤمنين إلا برسول الله ﷺ فلو بسط الكفار إلى النبي ﷺ لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل" (٣).

وهناك من العلماء من ذكر أن محاولة اغتيال يهود بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم والتي كانت سبباً لإجلائهم عن المدينة لم تكن بإلقاء الرحي وإنما كانت بالخناجر المخفاة في ملابسهم، واستدراجه ﷺ لمجموعة منهم ليفتكوا به، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي

(١) الطبري: جامع البيان. (ج ٢٣)، ص ٦٦٨.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج ١٠)، ص ١٠١. وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. (ج ٣)، ص ٦٣. السمعاني، منصور ابن محمد بن عبد الجبار: تفسير القرآن. تحقيق: ياسر بن إبراهيم. (ج ٢)، ص ٢٠.

(٣) الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي (الخواطر). ج ٥، ص ٢٩٨٦.

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴿٢﴾ [الحشر: ١-٢] (١).

ولم تقتصر محاولات اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم على تلك المحاولة فقط، بل إن الأمر تكرر مرات أخرى، فقد حاولوا اغتياله تارة بوضع السم له في الطعام وتارة أخرى باستخدام الشعوذة والسحر. وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك المحاولات، في قوله تعالى عن يهود: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] فالفعل المضارع في قوله {فريقا تقتلون} يفيد الاستمرارية والديمومة، "أن يُراد فريقا تقتلونهم بعدُ لأنكم حاولتم قتل محمد صلى الله عليه وآله وسلم لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة" (٢). فهذا يشير لمحاولتين قام بهما اليهود لقتل النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأما محاولة القتل بالسم فقد جاء في صحيح البخاري ما يؤكد هذه المحاولة، قالت عائشة: "كان النبي يقول في مرضه الذي مات فيه يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخبير، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري (٣) من ذلك السم" (٤). وقد جاء في سيرة ابن هشام تفصيل محاولة الاغتيال تلك (٥).

(١) انظر: الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق: المصنف. كتاب المغازي. باب وقعة بني النضير. تحقيق: عبد الرحمن الأعظمي المجلس العلمي الهند. المكتب الإسلامي، بيروت. (ط٢) ١٤٠٣ هـ. حديث رقم: ٩٧٣٣. (ج٥)، ص ٣٥٨. وانظر: أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود. المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت. كتاب الخراج والإمارة والفيء. باب في خبر النضير. رقم: ٣٠٠٤، (ج٣)، ص ١٥٦. حكم الألباني: صحيح الإسناد. وانظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: أسباب نزول القرآن. باب سورة الحشر. ص ٤١٦-٤١٧.

(٢) الرازي، محمد بن عمر بن الحسن: مفاتيح الغيب التفسير الكبير. (ج٣)، ص ٥٩٧. وانظر: النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود: مدارك التنزيل وحقائق التأويل. (ج١)، ص ١٠٨. وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. (ج١)، ص ٢١٥.

(٣) الأبهري: عرق إذا انقطع مات صاحبه وهما أبهران يخرجان من القلب ثم يتشعب منهما سائر الشرايين. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج٤)، ص ٨٣.

(٤) البخاري: صحيح البخاري. كتاب المغازي. باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته. حديث رقم: ٤٤٢٨، (ج٦)، ص ٩.

(٥) فقد "أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقيل لها: الذراع، فأكثر فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا بها، فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكا استرحمت منه، وإن كان نبيا فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات بشر من أكلته التي أكل" انظر: ابن هشام: السيرة النبوية. (ج٢)، ص ٣٣٧-٣٣٨.

وقد كان تأثير السم شديداً، يدل على ذلك وفاة الصحابي الذي أكل مع النبي صلى الله عليه وسلم، عن أم مبشر رضي الله عنها قالت: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي قبض فيه فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، ما تتهم بنفسك؟ فإني لا أتهم بابني إلا الطعام الذي أكله معك بخبير وكان ابنها بشر بن البراء بن معرور مات قبل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَا لَا أَتُهُمْ غَيْرَهَا، هَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي هَذَا»^(١).

وأما المحاولة الثانية التي أشارت لها آية ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] فهي محاولة القتل بالسحر قال الزمخشري "فإن قلت: هلا قيل وفريقاً قتلتم؟ قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية، لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد: وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أنني أعصمه منكم. ولذلك سحرتموه وسمتم له الشاة"^(٢).

وقد ثبتت حادثة السحر بما جاء في السنة النبوية، حيث روى البخاري عن عائشة قالت: سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله ودعاه، ثم قال: «أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه» قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: " جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق، قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة^(٣) ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان " قال: فذهب النبي صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: «والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رعوس الشياطين» قلت: يا رسول الله أفأخرجته؟ قال: «لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شراً» وأمر بها فدفنت^(٤).

(١) الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه: المستدرک علی الصحیحین. تحقیق: مصطفى عبد القادر عطا. باب ذكر مناقب بشر بن البراء. دار الكتب العلمية، بيروت. (ط) ١٤١١هـ. حديث رقم: ٤٩٦٦. (ج٣)، ص ٢٤٢. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. تعليق الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٢) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل. ج ١، ص ١٦٢.

(٣) والجف: غشاء الطلع إذا جف، وعم به بعضهم فقال: هو وعاء الطلع. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج٩)، ص ٢٨.

(٤) البخاري: صحيح البخاري. كتاب الطب. باب السحر. حديث رقم: ٥٧٦٦. (ج٧)، ص ١٣٧.

ولا نريد أيضاً أن نخوض في الخلاف الذي دار بين العلماء بين من أثبت حالة السحر التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم وبين من أنكر ذلك لعصمة الله له من الناس، لأن ما يعيننا في هذه الدراسة هو ذكر محاولات إيذاء الرسول وقتله في القرآن فقط.

المطلب الثالث: محاولة اغتيال الرسول ﷺ وقتله من قبل المنافقين

هذه المحاولة الخبيثة قد نتجت من قبل فئة عاشت بين المسلمين وشاركتهم أفعالهم وقد أظهروا الإيمان والاتباع لدين الله، وأبطنوا الكفر والتآمر على دين الله وعلى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكما هم مشركو مكة ويهود المدينة إلى قتله ﷺ، هم المنافقون كذلك للتخلص من رسول الله ﷺ الذي سلبهم ملكهم كما يظنون، وأقام له ملكاً جديداً في بلدهم.

والقرآن إذ يفضح لنا أعمال هؤلاء الذين كان لهم الأثر البالغ ضد الإسلام وأهله، وإذ يظهر ذروته في محاولة اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عائد من غزوة تبوك، حيث قال تعالى: ﴿ وَهُمْ أُولُو بَدَأٍ لَّيَالَى ﴾ [التوبة: ٧٤] " قال الضحاك: هموا أن يدفعوا النبي ﷺ ليلة العقبة^(١) وكانوا قوماً قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ وهم معه، يلتمسون غرته حتى أخذ في عقبة، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك كان ليلاً قالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، وكان قائده في تلك الليلة عمار بن ياسر وسائقه حذيفة فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل، فالتفت فإذا هو بقوم مثلثمين، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله؛ فأمسكوا، ومضى النبي عليه الصلاة والسلام حتى نزل منزله الذي أراد، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَهُمْ أُولُو بَدَأٍ لَّيَالَى ﴾^(٢).

من هنا ندرك أن الكفار مجتمعين عمدوا إلى قتل رسولنا ﷺ وإيذائه بشتى الطرق والوسائل والأساليب ظناً منهم أنهم يقدرّون على ذلك وما علموا أن الله حافظه ومعينه، قال تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ [الطور: ٤٨].

(١) العقبة: طريق في الجبل وعر... والعقبة الجبل الطويل يعرض للطريق فيؤخذ منه وهو طويل صعب شديد. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج ١)، ص ٦٢١. والمقصود هنا بليلة العقبة ليس ببيعة العقبة وإنما عقبة الطريق تحته وإذ إذا اعتلاها ليلاً يدفعونه عن راحلته إلى الوادي. انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. (ج ١٠)، ص ٢٧٠.

(٢) الواحدى: أسباب نزول القرآن. ص ٢٥١ - ٢٥٢.

الفصل الثالث

أثر ابتلاءات الرسول ﷺ الخارجية في بناء شخصية الداعية

المبحث الأول: الصبر والثبات

المبحث الثاني: الثقة بصحة الطريق

المبحث الثالث: استشعار معية الله

المبحث الرابع: تركيز الجهد على الهدف الرئيس وإهمال الحروب الجانبية

المبحث الخامس: التخطيط والتنظيم

المبحث السادس: اليقين بنصر الله

الفصل الثالث

أثر ابتلاءات الرسول ﷺ الخارجية في بناء شخصية الداعية

لعل الدارس لصنوف الابتلاءات والمحن التي وُوجه بها النبي ﷺ يجد كثيراً من العبر والدروس التي تسهم في بناء شخصية الداعية في كل وقت وحين. وما ينعكس عليها من آثار جليلة في كيفية التعامل مع الأزمات لا سيما في خضم الابتلاء وأذاه.

لم تكن كثرة الابتلاءات والمحن التي مرّ بها النبي ﷺ إلا دليلاً على عظم هذا الطريق ودافعاً للداعية ليتصف بما اتصف به نبينا الكريم ﷺ، وإذا كان النبي الكريم ﷺ الذي حفظه ربه ونافح عنه، قد عانى ما عاناه في سبيل هذه الدعوة، فإنه لحريّ بالداعية المسلم أن يدرك أهمية هذه الدعوة ويحرص كل الحرص على الدفاع عنها ويمتثل ما امثله نبيه الكريم ﷺ من الصبر والثبات والإيمان والثقة بصحة الطريق واليقين بنصر الله وتأييده، فهو الأسوة الحسنة وهو الدليل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فهي أسوة في أمر الدين والدنيا معاً.

ويمكن استخلاص الدروس المستفادة، والعبر المرجوة، والآثار المترتبة على الابتلاءات والمحن التي واجهت النبي ﷺ، عند الوقوف بعمق على تجليات هذه المحن وحال النبي ﷺ معها، فمن الإيمان بالله والثقة به تتعزز معاني الصبر والثبات، وتصبح المهمة الجليلة المنوطة بالداعية عظيمة يلزمها التخطيط واليقين بنصر الله عز وجل. وهذا ما سنتعرف عليه بإذن الله وسنقف على المعاني المستفادة منه أملاً في استخلاص هذه الآثار، والوقوف على تجلياتها؛ ليتصف بها الداعية ويلتزمها التزاماً واعياً في كل وقت وحين.

المبحث الأول

الصبر والثبات

من أهم الدروس المستفادة والآثار المترتبة من الابتلاءات والمحن التي عصفت بالنبي ﷺ على الداعية الصبر والثبات، والقرآن الكريم يسرد قصص الأنبياء والمرسلين ويبين ما لاقوه في سبيل دعوتهم من إعراض واتهامات وإثارة للشكوك وغيرها؛ إنما يهدف من ورائها إلى تسليّة قلب النبي ﷺ وإجلاء الحزن عنه وأنه ليس بدعاً من الرسل، فقد لاقى غيره من إخوانه الأنبياء ما لاقوه من ابتلاءات تحققت على يد من أنكروا رسالتهم. مما يثبت قلبه ويكون في ذلك مدعاة للصبر والتحمل، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِمْ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

ومما يلاحظه الداعية وهو يدرس الابتلاءات والمحن التي مرّ بها رسول الله ﷺ في القرآن الكريم؛ كثرتها وتنوعها وشدتها، كيف لا ورسول الله ﷺ احتمل كل ذلك وصبر عليه وبقي ثابتاً استجابة لما أوصاه به ربه، فبعد كل الابتلاءات والمحن وكل مزاعم التكذيب والاتهامات وإثارة الشكوك، يحرص القرآن الكريم على دعوة النبي ﷺ وأتباعه إلى الصبر، سيما في ختام الآيات التي تحدثت عن الابتلاءات بشتى صنوفها، أو في ختام بعض السور القرآنية والتي ذكرت في ثناياها بعض ألوان وضروب الابتلاءات، مما ينعكس على بناء شخصية الداعية اليوم، فيتأثر لتلك النداءات الإلهية وتلك الأوامر الربانية، فيصبر ويحتسب ما يلاقه في سبيل الله.

ف نجد أن سورة النحل -على سبيل المثال- بعدما ذكرت صنوفاً من الابتلاءات كاتهام محمد ﷺ بأنه كاذب مفتر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ [النحل: ١٠١] ثم اتهامه ﷺ بأن الذي يعلمه بشر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] ثم ذكرت السورة الكريمة محاولة كفار قريش طرد النبي ﷺ من مكة والهجرة، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، فبعد أن ذكرت السورة تلك الأصناف من الابتلاءات

تأتي الوصية للنبي ﷺ بالصبر في آخر آيتين من تلك السورة، فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وهذه وصية لرسول الله ﷺ ليصبر على ما يجد من تكذيب قومه وإعراضهم وأذاهم، وفيها إشارة إلى أن الله سيعينه على الصبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ "فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية، وحين تتجه إليه يُجَدِّد الله لك الخواطر الطيبة التي تُعينك عليه ويُيسِّر لك وتُرضيك به، فيأتي صبرك جميلاً، لا سخط فيه ولا اعتراض عليه"^(١).

وسورة الأحقاف قد ذكرت لنا بعض صور الابتلاءات والأذى التي مرت بالنبي ﷺ؛ فمنها اتهمه ﷺ بالافتراء والكذب، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨]، وفي ذلك تنبيه للداعية بأن الكفاية من الله وحده، هو من يقضي بينهم، في لفتة كريمة بالتسليم الكامل لله عز وجل والصبر والاحتساب من جرّاء فعلهم وسوء أدبهم مع النبي ﷺ. كما وأشارت السورة الكريمة إلى معاندة اليهود وإعراضهم عن الحق الذي يعرفونه عن رسول الله ﷺ رغم إيمان وتصديق بعض أحبارهم وعلمائهم، أمثال عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ فَنَافِثٌ أَتَىٰ آلَ الْفَارِسِيِّينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ثم تشير السورة الكريمة إلى ابتلاء النبي ﷺ في الطائف وما لاقاه من أذى صبيانهم وجهالهم وقد رشقوه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه، ولهذا فقد صرف الله له هؤلاء النفر من الجن فاستمعوا لكلام الله فآمنوا، وما كان ذلك إلا تسليّة لقلبه وجلاء لحزنه وتخفيفاً للأذى الذي لاقاه منهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلى آخر الآيات.

وأشارت السورة الكريمة أيضاً إلى قصة نبي من أنبياء الله السابقين، وهو هود عليه السلام وما لقيه من إعراض قومه ومعاندة الحق الذي يدعو له، ثم الجزاء الذي استحقوه من عذاب

(١) الشعراوي: تفسير الشعراوي. (ج ١٣)، ص ٨٢٩٧.

الله وسخطه؛ جرّاء ذلك الكفر والإعراض، فقال سبحانه تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] إلى آخر الآيات.

والذي ينظر في كتاب الله عز وجل ويتدبر آياته وسوره يدرك أنه وبعد كل محطة من محطات الابتلاءات الواردة فيه وصية لرسول الله ﷺ وللدعاة من بعده بضرورة التزام الصبر والأناة، ولهذا فقد جاءت آخر آية في سورة الأحقاف تدعو لذلك، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، إن هذه الآية "تفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بجعلهم القرآن مفترى واستهزائهم به وبما جاء به من البعث... وما اتصل به من ضرب المثل لهم بعاد، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضرب له المثل بالرسول أولى العزم... فإذا علمت ما كان من الأمم السابقة وعلمت كيف انتقمنا منهم وانتصرنا برسولنا فاصبر كما صبروا"^(١)؛ لأن في ذلك مدعاة للصبر والثبات، لا سيما بعد النظر في مآل قصص الأنبياء السابقين من نصر الله وتأييده لهم، وخذلان المعاندين من أقوامهم، والمعرضين عن دعوتهم وإلحاق العقوبة الربانية بهم.

وليس هذا فحسب، بل إن الصبر مدعاة للنصر والتمكين، ويتضح لنا ذلك من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقد جاءت هذه الآية في نهاية مجموعة من الآيات التي ذكرت بعض ابتلاءات نوح عليه السلام^(٢) وتحدثت عن قصته، فالصبر عاقبته النصر والفوز والسرور، كما حدث مع نوح عليه السلام ومن آمن معه. ثم ذكرت سورة هود عليه السلام بعض الجوانب في قصة كل من هود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم الصلاة والسلام، وبعد سرد تلك القصص لأنبياء الله السابقين تأتي الآيات لتأمر النبي ﷺ بالاستقامة والثبات على أمر الله، فالخطاب له ولأصحابه ولسائر الدعاة إلى الله، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير. (ج ٢٦)، ص ٦٦-٦٧.

(٢) انظر: [هود: ٢٥-٤٩]

وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ [هود: ١١٢]^(١)، ثم تأتي الآيات بعدها لتكرر الدعوة إلى الصبر والتحمل في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، يقول النسفي في تفسيره لهذه الآية: " {واصبر} على امتثال ما أمرت به والانتفاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به"^(٢)، ومن هنا يظهر لنا أن هناك صبراً على طاعة الله، وصبراً عما نهى الله عنه من المعاصي والذنوب، ومما لا شك فيه أن من أعظم أعمال البر والطاعة هي الدعوة إلى الله عز وجل والصبر عليها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، ثم يأتي في أواخر السورة الآية التي تبين الحكمة الإلهية والغرض الأبرز من ذلك القصص القرآني، ألا وهو تثبيت قلب النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، ولعل هذا التثبيت يتضح من خلال "زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكراً وعلماً بأن حاله جار على سنن الأنبياء، وازداد تذكراً بأن عاقبته النصر على أعدائه، وتجدد تسليية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبراً. والصبر: تثبيت الفؤاد. وأن تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور يزيده علماً بأن مراتب العقول البشرية متفاوتة، وأن قبول الهدى هو منتهى ارتقاء العقل، فيعلم أن الاختلاف شنشنة^(٣) قديمة في البشر، وأن المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري، فلا يحزنه مخالفة قومه عليه، ويزيده علماً بسمو أتباعه الذين قبلوا هدايه، واعتصموا من دينه بعراه"^(٤).

نجد هذا الارتقاء حين تتحقق معية الله عز وجل للداعية المسلم، هذه المعية التي تحققت لنبيينا الكريم ﷺ زادته قوة وبقينا بنصر الله، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]، وكذلك قوله: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءِاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ

(١) انظر: ابن عطية: المحرر الوجيز. (ج٣)، ص ٢١١.

(٢) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل. (ج٢)، ص ٨٩.

(٣) والشنشنة: الطبيعة والخلقة والسجية. انظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج١٣)، ص ٢٤٣.

(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير. (ج١٢)، ص ١٩٢.

أَحْوَتْ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿ [القلم: ٤٨]. هذه إشارات التوجيه ووصايا التنبيه التي يعجّ بها القرآن الكريم؛ ليرسم لنا الطريق الواضح الذي لا لبس فيه، إنه الصبر، إنه الثبات، إنه اليقين بحتمية العقوبة للمتقين. يقول سيد قطب: " يوجه الله نبيه ﷺ إلى الصبر. الصبر على تكاليف الرسالة. والصبر على التواءات النفوس. والصبر على الأذى والتكذيب. الصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد. ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف... ﴿ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ أَحْوَتْ ﴾ ... وملخص تجربته التي يذكر الله بها محمداً - صلى الله عليه وسلم - لتكون له زاداً ورصيдаً، وهو خاتم النبيين، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير، وصاحب الرصيد الأخير، وصاحب الزاد الأخير. فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير. عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة. وعبء هداية الأجيال جميعها "(١).

فكما أن النبي ﷺ قد صبر وثبت على طريق الدعوة كما صبر وثبت إخوانه الأنبياء من قبله، فقد صبر الباطل على باطله، ولهذا فقد ذكر لنا القرآن الكريم صبر الباطل وجلده على عبادة الأصنام وعبادتها، ولهذا فقد ظهر لنا جلياً خوف الكفار من صبر النبي ﷺ وثباته الذي كاد يحطم صبرهم على باطلهم، فقال تعالى: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءِلَهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٢]، يقول الزمخشري في تفسيره: "وقولهم إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوتهم، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شافوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجأهم واستمسكهم بعبادة آلهتهم"(٢). فحري بالداعية اليوم أن يصبر على دعوته ويتحمل في سبيلها كل ما يلاقيه.

وفي خضمّ الابتلاءات وألوانها يظهر لنا جلياً خلق النبي ﷺ في صبره وثباته وعدم الاستعجال على قومه، وفي هذا درس للداعية، فلا مقام للاستعجال في الدعوة إلى الله بل تحتاج إلى التآني والهدوء، فمن استعجل الثمرة قبل نضوجها عوقب بحرمانها وضياح لذتها.

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن. (ج٦)، ص ٣٦٧٠-٣٦٧١.

(٢) الزمخشري: الكشاف. (ج٣)، ص ٢٨١.

فبعد ما لاقاه ﷺ في الطائف من سخرية واستهزاء وحجارة قد سيّلت الدماء من قدميه، يرسل الله عز وجل له ملك الجبال حتى يطبق عليهم الأخشبين، فيرفض ذلك رحمة بهم، ويقول: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) ^(١).

ومن المعاني التي نجنيها من ابتلاءات النبي ﷺ والتي بها الدافع للصبر والثبات ومدعاة لهما، أن الجزء من جنس العمل، وهذا ما يعطي الداعية الاطمئنان لما هو عليه وعدم الاستعجال في مواجهة الباطل وتحديه، وتظهر لنا تلك القاعدة والسنة الإلهية في معاملة الخلق في كثير من آيات الله في كتابه الحكيم، وهو يرد سبحانه وتعالى على بعض أعمال الكفار في مواجهة الدعوة وحاملها، فمنها ما يرد على إعراض المنافقين واستهزائهم، بقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، ومنها ما يكون الرد على أولئك الكفار الذين يضحكون من ضعفاء المؤمنين ويسخرون ويهزؤون بهم، بقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، ومنها ما يكون الرد على مكرهم ومؤامراتهم، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وغير ذلك من الآيات التي تبين لنا أن الجزء من جنس العمل، مما يطمئن المبطلين من أصحاب الدعوات ويصبرهم على ما هم عليه، ويزيدهم ثباتاً وتمسكاً بمبدئهم، سيما وهم يرقبون ما أعد الله لهم من الجزاء الوفير لما أصابهم في سبيل الله.

ومن هنا تظهر المنح الربانية من خلال المحن، وما ذلك إلا زيادة في التصبر ودفعة للثبات، فهي هي المكافأة الربانية للنبي ﷺ تأتيه بعد تعرضه لابتلاء السخرية والاستهزاء، وبأنه أبتّر ومنقطع لا خير فيه، فتتزل الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣]، لتبشره بعطايا الله له ولمن صبر معه، والكوثر قد وصفته عائشة رضي الله عنها بعد أن سئلت عن هذه الآية فقالت: "نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد النجوم" ^(٢).

(١) سبق تخريجه. انظر: ص ٩٢.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب {ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره}. حديث رقم: ٤٩٦٥. (ج ٦)، ص ١٧٨.

وفي موضع آخر من كتاب الله يبين الحق سبحانه وتعالى جزيل ثواب الصبر على ما يمرّ به المؤمنون من ابتلاءات ومحن، سيما الضحك والاستهزاء والسخرية بهم، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ] [المؤمنون: ١١٠-١١١]، يقول القرطبي في تفسيره: "ويستفاد من هذا: التحذير من السخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم، والإضرار عليهم والاشتغال بهم فيما لا يغني، وأن ذلك مبعّد من الله عز وجل" (١)، وهذا لكرامتهم عند الله وعلو شأنهم.

ولهذا فقد استحق هؤلاء الصابرون ذلك الأجر الوفير والعطاء الجزيل دون عدد ولا انقطاع وما هذا لسواهم، فقد خصص لهم دون غيرهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري: أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نفذ ما عنده، فقال لهم حين نفذ كل شيء أنفق ببديده: « ما يكن عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يستعف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، ولن تعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر » (٢)، فالصبر هو خير سلاح في وجه الباطل وأهله، وهو خير الأعمال أجراً وأوسعها عطاءً.

وكما أن قصص الأنبياء وابتلاءاتهم كانت هي الرافد والمعين للنبي ﷺ وصحابته، فكذلك دراسة الابتلاءات والمحن التي مرّ بها سيدنا محمد ﷺ هي خير ما يعين داعية اليوم على ما يجده في طريق دعوته من لأواء وشدة وابتلاء، فمهما كان نوع الابتلاء الذي يجده الداعية في طريق دعوته اليوم، فسيجد له في رسول الله أسوة حسنة، فإن كان الداعية يجد ابتلاءً من أهله وأقاربه فلقد وجد رسول الله ﷺ ذلك من قرابته وعلى رأسهم عمه أبو لهب وما نصب له من العداء، وإن كان ابتلاء الداعية طرداً من بلده أو تهجيراً ونفيّاً، فلقد لاقى رسول الله ﷺ مثل ذلك حين اضطره قومه للخروج من بلده مكة، وإن كان سجنّاً وحصاراً، فقد حوَصِر رسول الله ﷺ في شعب أبي طالب ثلاث سنين، وإن كان فقراً أو جوعاً أو قلة ذات اليد، فقد وجد رسول الله ﷺ من ذلك ما

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ١٢)، ص ١٥٥.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب الرقائق. باب الصبر عن محارم الله. رقم الحديث: ٦٤٧٠، (ج ٨)، ص ٩٩.

وجدته، ولئن كان تشويهاً لسمعته، واتهامه بالباطل، فما أشد ما لاقاه النبي الكريم ﷺ في هذا الشأن، وإن كان أذى مادياً، فقد تعرض رسول الله ﷺ للخنق والضرب وسالت دماؤه عليه الصلاة والسلام، وإن كان اغتياًلاً ومحاولة لتصفيته، فقد تعرض رسول الله ﷺ لذلك، وبهذا تغدو هذه الابتلاءات أسوة حسنة لكل داعية حتى يصبر ويثبت، ويمضي في دعوته لا يفزعه أذى ولا ابتلاء.

المبحث الثاني

الثقة بصحة الطريق

من آثار دراسة الابتلاءات والمحن التي عصفت بالنبي ﷺ في القرآن الكريم، التيقن من صحة الطريق وسلامة المنهج، ذلك أن الابتلاء هو سنة من سنن الله في الدعوات، ولهذا فقد كثر الحديث في القرآن الكريم عن أصناف الابتلاءات التي مر بها الأنبياء عليهم السلام في طريق دعوتهم بشكل عام، والابتلاءات التي مر بها النبي ﷺ بشكل خاص؛ ليبين لنا تلك السنة الإلهية، ومن سلك درب دعوة من الدعوات دونما ابتلاء، أيّاً كان نوع هذا الابتلاء، فتلك إشارة على خلل في الطريق؛ فدعوة الحق إنما جاءت لتصحيح اعوجاج الباطل وتقويمه، وهذا لا يُرضي أهل الباطل بأيّ حال من الأحوال، ويستتبع بالضرورة عداوتهم ومحاربتهم، ومن هنا ينشأ الابتلاء على من سلك درب الدعوة ويتعرض له، أما من لم يجد في طريق دعوته ابتلاء ولا أذى، فتلك علامة على أنه لا يعادي باطلاً ولا يصحح خطأً ولا يقوم اعوجاجاً، لأن في اتباع الحق حتمية لعداوة للباطل، ومن هنا كان الابتلاء إشارة على صحة الطريق، تزيد الداعية يقيناً وثقة بصحة هدفه وسلامة منهجه، مع ملاحظة الفرق بين ابتلاء ناجم عن طبيعة دعوة الحق ومواجهتها لأهل الباطل، وبين ابتلاء آخر ناجم عن تقصير من الدعاة في التخطيط أو إهمال لسنن التغيير.

ولقد أدرك النبي ﷺ هذه السنة الإلهية في الدعوات، من أول يوم بزوغها، فقد قال له ورقة بن نوفل: " يا ليتني فيها جذعاً، أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ : «أومخرجي هم؟!» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي^(١). وهذا ما حدث، فقد عودي أشد العداة ومارسوا ضده أساليب الأذى والاضطهاد.

وليس هذا بدعاً من القول، بل إننا نجد في القرآن الكريم تلازماً بين الأمر بالدعوة إلى الله والأمر بالصبر، كأنهما قرينان لا يفترقان، وهذا ما يؤكد أنه لا دعوة بدون ابتلاء، ولا يحدث

(١) البخاري: صحيح البخاري. كتاب التعبير. باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم. حديث رقم: ٦٩٨٢. (ج٩)، ص ٢٩.

التمكين لها إلا بعد التمهيد لأتباعها بالابتلاء والمحن، فمن ذلك على سبيل المثال؛ قول الله عز وجل في سورة فصلت: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٦﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥]. وفي موضع آخر، قال تعالى: ﴿ يَبْنِي أَقْصَى الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبَرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]. ومنها أيضاً ما جاء في سورة العصر، قال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣]، وفي سورة النحل، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٧] فجميع الآيات السابقة أمرت بالدعوة إلى الحق ثم عقيبت على ذلك الأمر بالدعوة إلى الصبر، وفي هذا إشارة واضحة لكل من يريد أن يسلك سبيل الدعوة إلى الله بأنه سبيل لم يُعبد بالورد والرياحين، بل هو سبيل يستتبع ولا شك نوعاً أو أنواعاً من الأذى والابتلاء، ولهذا جاءت الوصية بالصبر عقب كل أمر بالدعوة إلى الله.

ومن هنا فإن الداعية الذي تبصر بما ذكره القرآن من هذه الابتلاءات، لن يجد غضاظة ولا غرابة فيما يصيبه من ابتلاء، بل لعل الابتلاء يزيده سعادة وطمأنينة من حيث إنه في هذا إشارة على صحة طريقه ومنهجه، وتشبهه برسول الله ﷺ، وقد صرحت سورة الحج بأن الابتلاء هو إشارة يعلم من خلالها أهل العلم صحة طريقهم وسلامة منهجهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿١٠٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٠٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٨﴾

[الحج: ٥٢-٥٤]، فهذه الآيات تتحدث عن سنة الابتلاءات في دعوة الأنبياء، فما من نبي أرسله الله إلا ويتمنى هذا النبي أن يؤمن به الناس، ويصدقوا ما جاء به ويعبدوا الله وحده، ويطبقوا شرعه، ولكن الشيطان وأعدائه يلقون العقبات في طريق تحقيق هذه الأمنية، ولهذا ينشأ عن هذه العقبات ابتلاءات وأذى، وقد عللت الآية الهدف الأسمى من إلقاء الشيطان بعلتين: "جعل الله الإلقاء فتنةً لِيختبر الناس، وَلِيُمَيِّزَ مَنْ يَنْهَضُ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ، فَهِيَ مَسْئُولِيَّةٌ لَا يَقُومُ بِهَا إِلَّا مَنْ يَنْفِذُ مِنَ الْفِتَنِ، وَيَنْجُو مِنْ إِغْرَاءَاتِ الشَّيْطَانِ، وَيَتَخَطَّى عَقَبَاتِهِ وَعِرَاقِيلَهُ... أما العلة الثانية: ففي قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، يعني: يتأكدون تأكيداً واضحاً أن هذا هو الحق"^(١)، فتكون تلك العقبات وما ينشأ عنها من ابتلاءات إشارة لأهل العلم وأهل الدعوة أنه طريق الحق، عندها يتقون بصحة طريقهم ودعوتهم.

كما أن استقراء قصص الأنبياء في القرآن الكريم، يظهر بوضوح كيف أن المكذابين من أقوامهم والملأ منهم لم يرضوا يوماً عن أحد الأنبياء ولا عن دعوتهم وما جاءوا به، بل وقفوا دوماً موقف العداء من الأنبياء وأتباعهم وساموهم ألوان الأذى والعذاب والاضطهاد، ولذلك فإن الدعاة وحملة رسالة الأنبياء لا يعجبون ولا يستكرون ما يقع بهم من أذى وابتلاء؛ بل يرونه سنة الله الماضية في الدعوات.

وبناء على ذلك فإن داعية اليوم حين يلاقي في طريقه مثملاً لاقى رسول الله ﷺ من حرب إعلامية، أو حصار اقتصادي، أو محاولات قتل وسجن وأذى معنوي ومادي إلى غير ذلك، فإن ذلك مما يزيده إصراراً على طريقه، وثقة بأنه على منهج الخير والحق، وهذا بلا شك من أهم الآثار التي يخرج بها من يدرس ابتلاءات النبي ﷺ في القرآن الكريم، والتي تؤثر في بناء شخصيته.

وتبرز أهمية هذا الأثر إذا علمنا أن الثقة بصحة الطريق هي من أهم الأسباب التي تولد في النفس القدرة على الصبر والتحمل والثبات على المبدأ رغم ما يلاقيه الداعية على طريق دعوته من شدة وابتلاء، فإن دوام الإعراض من قبل الناس وتزايد الابتلاءات والمحن قد يدفع بحامل

(١) الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي. (ج ١٦)، ص ٩٨٨١-٩٨٨٢.

الرسالة إلى الشك في نفسه أو في طريقه أو في منهجه، وقد تحدّثه نفسه بتغيير طريقه أو تبديل منهجه ورسالته.

ولهذا جاءت الدعوة إلى الصبر والثبات في القرآن الكريم من خلال التأكيد على صحة الطريق، يقول تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣] "والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر، فكن مستمسكاً بما أوحينا إليك وبالعامل به، فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضال شقي، وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت الذي لا ينشطه تعجيل ظفر، ولا يثبطه تأخير^(١)، وأيضاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُمِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، وقد "علل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشك والظن. وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته"^(٢). فاستشعار الداعية للحق الذي هو عليه، وثقته بصحة طريقه وما يدعو له، وهو يجابه الباطل ومعتقداته وأفكاره، يولد عنده قوة للصدع به والجهر بدعوته فيكون ذلك مدعاة للصبر والثبات في قلبه، لأن من أهم عوامل الصبر والثبات على ما يلقاه الداعية من الابتلاءات هو ثقته بصحة دعوته ومنهجه.

وإن الثقة بصحة الطريق بلا شك هي من أهم أسلحة الداعية في مواجهة الباطل وأعدائه، فهي تصنع الاعتزاز والفخر بالمنهج والمبدأ الذي يدعو له، ومن هنا يتوفر للداعية الجرأة في قول الحق وعدم الخوف والجبين في مواجهة الباطل وأعدائه، وإن هذه الثقة ينشأ عنها ويستتبعها أيضاً، الثقة بنصر الله، ولهذا فإن النبي ﷺ قذف في قلوب صحابته أن ما جاء به هو الحق وما عداه الباطل وأن رسالته خير الرسالات، ونهجه أفضل المناهج، وشريعته أكمل النظم التي تتحقق بها سعادة الناس أجمعين، وتلا عليهم من كتاب الله ما يزيد هذا المعنى ثباتاً في النفس وتمسكاً في القلب: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣]، ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُمِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا

(١) الزمخشري: الكشاف. (ج٤)، ص ٢٥٤.

(٢) المرجع السابق. (ج٣)، ص ٣٨٣.

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [الجاثية: ١٨] وقذف في قلوبهم أنهم ما داموا أهل الحق وما داموا حملة رسالة النور، وغيرهم يتخبط في الظلام، وما دام بين يديهم هدى السماء لإرشاد الأرض فهم إذن يجب أن يكونوا أساتذة الناس، وأن يقعدوا من غيرهم مقعد الأستاذ من تلميذه : يحنوا عليه ويرشده ويقومه ويسدده ويقوده إلى الخير ويهديه سواء السبيل، وقذف في قلوبهم أنهم ما داموا كذلك مؤمنين بهذا الحق معتزين بانتسابهم إليه، فإن الله معهم يعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيدهم ويمدهم إذا تخلى عنهم الناس، ويدفع عنهم إذا أعوزهم النصير وهو معهم أينما كانوا، وإذا لم ينهض معهم جند الأرض تنزل عليهم المدد من جند السماء وأخذوا يقرءون هذه المعاني السامية واضحة في كتاب الله ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿ أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]، ... قرعوا هذا وفقهوه جيداً فأمنوا به واعتقدوه وصدروا عنه، وبهذه المشاعر الثلاثة : الإيمان بعظمة الرسالة والاعتزاز باعتناقها والأمل في تأييد الله إياها، أحياء الراعي الأول ﷺ في قلوب المؤمنين من صحابته بإذن الله، وحدد لهم أهدافهم في هذه الحياة، فاندفعوا يحملون رسالتهم محفوظة في صدورهم أو مصاحفهم، بادية في أخلاقهم وأعمالهم معتدين بتكريم الله إياهم واثقين بنصره وتأييده، فدانت لهم الأرض وفرضوا علي الدنيا مدنية المبادئ الفاضلة وحضارة الأخلاق الرحيمة العادلة، وبدلوا فيها سيئات المادية الجامدة إلى حسنات الربانية الخالدة، وبأبى الله إلا أن يتم نوره^(١).

ولذا فإننا نجد العلاقة وطيدة بين الثقة بصحة الطريق وما ينتج عنها من مدعاة للصبر والتحمل على ما يصيب الداعية خلال طريق دعوته، وما ينتج عنها أيضاً من الاعتزاز بمنهجه، والثقة المطلقة بتأييد الله عز وجل له وتحقيق النصر والظفر على يديه.

وفي خضم الابتلاءات النبوية تنتزل الآيات لترزع الثقة بصحة المنهج لأتباعه، مما يجعلهم يمشون في دعوتهم ويصبرون عليها، مما يصقل شخصيتهم بتلك الثقة التي لا تتزعزع عند الشبهات، ولا يخفق نورها في الوجدان عند المساومات والإغراءات، فهناك آيات قرآنية كثيرة

(١) البناء، حسن أحمد عبد الرحمن: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البناء. مكتبة الإيمان بالمنصورة أمام جامعة الأزهر. ١٩٩٢م. ص ٢٣٣ - ٢٣٥.

تغرس في النفس تلك الثقة بصحة الطريق، وأن طريق ومنهج الخصم هو الباطل، فأيات التحدي في كتاب الله قد جاءت بعد اتهامات الكفار لرسول الله ﷺ بالكذب والافتراء لما جاء به من ربه للتشكيك بمنهجه وصحة طريقه، ولذا فقد ألزم الله الكفار الحجة على ما قالوه من افتراءات وكذب في حق رسول الله ﷺ وما جاء به، فتحداهم بالإتيان بمثل هذا القرآن في حسن بيانه ونظمه وسبك عبارته، إن كانوا صادقين فيما يدعون^(١)، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ^٢ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿ [الطور: ٣٣ - ٣٤]، فعجزوا عن ذلك.

ثم جاء التحدي لهم بأنهم لن يستطيعوا أن يفتروا ويختلقوا عشر سور مثل سور القرآن، حتى وإن استعانوا بمن أرادوا من الخلق والآلهة والأنداد، لا سيما، كما تدعون، أن ما جاءكم به مفترى وكذب واختلاق، وأنه ليس بمعجزة كسائر معجزات الأنبياء^(٢)، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ^٣ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، وفي موضع آخر تظهر لنا إلزام الحجة على الكافرين الذين اتهموا رسول الله ﷺ بالكذب والافتراء، بالإتيان بسورة من مثل سورة، لا سيما أن النبي ﷺ هو عربي مثلهم ولغته ولسانه مثل لسانهم أيضاً، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ^٤ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]^(٣).

ومما لا شك فيه أن آيات التحدي تلك، والتدرج في طلبها من القرآن كله إلى عشر سور منه، ثم إلى سورة من سورة، وعجز أهل الفصاحة واللغة عن ذلك، قد عمدت إلى مجابهة تحدي الكفار وعنادهم، "وتثبيت الرسول ﷺ والقلّة المؤمنة معه بهذا التحدي من الله وبذلك العجز من المشركين"^(٤)، مما أوجد الثقة بصحة القرآن وما يدعو له، ومما يطمئن قلب الداعية بالثقة المطلقة بصحة طريقه ومنهجه ودعوته؛ لأنها تقوم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويكشف زيف الباطل

(١) انظر: البغوي: معالم التنزيل. (ج٤)، ص ٢٩٥.

(٢) انظر: الطبري: جامع البيان، (ج١٢)، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) انظر: السابق. (ج١٢)، ص ١٨٢.

(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن. (ج٤)، ص ١٨٥١.

وتعنته وجهل أتباعه، عندها ينطلق بدعوته لا يخاف باطلاً ولا يعمل حساباً لأحد إلا الله الذي آمن به ودعا له.

فدراسة الآيات والتعلق بها تبعث الراحة النفسية للداعية والثقة بصحة منهجه والاعتزاز به، لا سيما عندما يرى آيات الله في الكون المنظور قد التقت مع آيات الله في القرآن المسطور، وما فيه من إعجاز علمي أبهر كثيراً من علماء الغرب فأسلموا، وما زال التحدي قائماً لكل قوى الكفر الذين ما زالوا يلقون بالشبهات حول آيات القرآن الكريم وأوامره ونواهيه، ولكن القرآن يبقى منتصراً وصامداً أمام تلك الشبهات.

المبحث الثالث

استشعار معية الله

تتضح معية الله لنبيه الكريم ﷺ في كل ابتلاء نزل به، وفي كل أذى تعرض له، وهذا ما يعود على الداعية بأثر مهم؛ ألا وهو استشعار الداعية معية ربه له في كل ابتلاءاته، وهو ما يعينه على الصبر والثبات، بل إن استشعار معية الله يجعل لألم الابتلاء حلاوة وسعادة، ولشدة وطأته رضا وسكينة وشكراً.

فعندما تحدثت آيات القرآن الكريم عن ابتلاء الرسول ﷺ بمحاولات قتله أو اغتياله أو سجنه، جاء ذكر معية الله في ختام تلك الآية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فإذا كان المشركون يخططون لسجنك أو لقتلك أو لطردك ونفيك من أرضك ووطنك فإن الله معك، وهو سبحانه يرقب تحركاتهم ومكرهم من حيث لا يشعرون، يقول الشعراوي في تفسير هذه الآية: "﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يذكرون الكيد والتببيت لك بالمكر، لكنهم لا يعلمون أن مَنْ أرسلك يا رسول الله لا تخفى عليه خافية، فقد يقدر على المكر لمن هم في مثلهم من القدرة، لكنك يا رسول الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت في حفظه ورعايته، إذن فلست وحدك لأنك تأوي إلى الله، ويكشف الله لك كل مكرهم، وهذا المكر والتببيت مكشوف ومفضوح من الله" (١).

وتجلت معية الله لرسوله ﷺ في حادثة الهجرة عندما أخرجه قومه وطردوه من مكة المكرمة، فتنزل عليه السكينة والطمأنينة وهو في الغار فيطمئن صاحبه، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۚ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠]،

(١) الشعراوي: تفسير الشعراوي. (ج٨)، ص ٤٦٨٠-٤٦٨١.

وعَلَّ النَّهْيَ عَنِ الْحُزَنِ بِقَوْلِهِ {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} "أي: لا تحزن لأن الله معنا بالنصر والمعونة والحفظ والعصمة، والتأييد والرحمة، ومن كان الله تعالى معه بعزته التي لا تغلب، وقدرته التي لا تقهر، ورحمته التي قام ويقوم بها كل شيء، فهو حقيق بالألا يستسلم لحزن ولا خوف" (١).

وما أَعَذَّبَ الْآيَاتِ إِذْ تَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي طَرِيقٍ هَجَرْتَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ وَتَجْلُو عَنْهُ حُزْنُهُ وَتَعْدُهُ بِالرَّجُوعِ لِأَرْضِهِ مَكَّةَ، عِنْدَهَا يَسْتَشْعِرُ تِلْكَ الْمَعِيَّةَ وَالْعَنَايَةَ الْإِلَهِيَّةَ، الَّتِي تَرْقُبُ تَحْرِكَاتِهِ فَتَضْفِي عَلَيْهَا الْهَدُوءَ وَالسَّكِينَةَ، وَخَلْجَاتِ نَفْسِهِ فَتَجْلِي مَا فِيهَا مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ وَالْوَدَاعِ، وَيَسْتَشْعِرُ تِلْكَ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي تَصْنَعُ الْأَحْدَاثَ وَالْمَوَاقِفَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: "لرأذك إلى مكة، كما أخرجك منها" (٢)، وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ بِالْجَحْفَةِ خِلَالَ الْهَجْرَةِ (٣)، وَلَكِ أَنْ تَتَخِيلَ سَعَادَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ يَسْتَشْعِرُ عِلْمَ اللَّهِ بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ حُزْنٍ وَلَوْعَةٍ عَلَى فِرَاقِ مَكَّةَ وَطَرْدِهِ مِنْهَا، فَتَنْزِلَ الْآيَةُ بِوَعْدٍ مِنْ مَوْلَاهُ بِأَنَّهُ مَعَهُ وَيَرْعَاهُ، وَسَيُعِيدُهُ إِلَى مَكَّةَ كَمَا أَخْرَجَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْهَا.

وَنَلْظُظْ مَعِيَّةَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ عِنْدَ الْإِبْتِلَاءِ بِالسَّخَرِيَّةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّهْكُمِ، فَتَأْتِي الْآيَاتُ مَخْبِرَةً رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّ رَبَّهُ سَبَّحَانَهُ يَعْلَمُ قَوْلَهُمْ، وَيَعْلَمُ مَا فِي صَدْرِهِ مِنْ حُزْنٍ وَضِيقٍ، وَتُبَشِّرُهُ الْآيَاتُ بِأَنَّ اللَّهَ مَعَهُ سَيَكْفِيهِ شَرَّهُمْ وَهَزَأَهُمْ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٥-٩٨]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِقَايِدَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، وَمَجْرَدِ إِحْسَاسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَعُورِهِ بِأَنَّ

(١) رضا، محمد رشيد: تفسير المنار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٠م. (ج ١٠)، ص ٣٦٩.

(٢) الطبري: جامع البيان. (ج ١٨)، ص ٣٥٠.

(٣) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ١٣)، ص ٢٤٧. البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن. (ج ٦)، ص ٢٢٧. الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن. (ج ٧)، ص ٢٦٧.

الله يعلم حزنه ويعلم حاله من الضيق والأذى، فيه من المعية والعناية الإلهية ما يخفف عنه حزنه، ويرفع عنه ذلك الأذى.

ولك أن تستشعر تلك المعية الإلهية لرسول الله ﷺ في أواخر سورة الطور، والتي قد عرضت جانباً من إعراض المشركين وشدة عنادهم وتعنتهم في طلباتهم وتقولهم على الله بما لا يعلمون -وقد كان كل ذلك مما يؤدي رسول الله ويحزن قلبه، فيأتي ختام السورة بقول الله سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، فأى سكينه وأي معية وعناية تسكبها هذه الكلمات في قلب النبي الكريم ﷺ، حين يستشعر أن الله يراعه بعينه ويكلؤه ويحفظه من كيدهم.

وفي معرض الحديث عن الابتلاء بالمساومات والإغراءات، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ^ط وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣]، ثم يأتي بعد ذلك ذكر المعية الإلهية للرسول ﷺ وتثبيت الله عز وجل له في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَ لَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فالآيات فيها "إخبار عن تأييده تعالى رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيتته وعصمته وتولي أمره وحفظه. فإن المشركين، لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيמתهم، كادوا أن يفتنوه، ولكن عناية الله وحفظه، هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره"^(١).

فمعية الله وتثبيتته هو الذي عصم رسول الله وهو الذي يعصم كل داعية من الانزلاق في مثل هذه الابتلاءات.

وفي غزوة حنين، وفي أصعب الظروف وأحلك اللحظات، يوم وقع المسلمون في كمائن العدو، ففرّ من فرّ من المسلمين وتفرّقوا عن رسول الله ﷺ إلا قليلاً منهم، عندها تنزل السكينة والطمأنينة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، لتتحقق المعية والعناية الإلهية له، وأنه ليس وحده في الميدان، فعين الله ترقب حاله في كل سكة وفي كل حركة، فأنزل الله ملائكة لنصرته وتأييده، فأية عناية تعدل تلك العناية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ

(١) القاسمي: محاسن التأويل. (ج ٦)، ص ٤٧٩.

مُدْبِرِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦]، وكرامة للنبي ﷺ وإظهاراً لمعينة الله له في هذه الغزوة فقد هباً الله له جندياً من جنوده وسلاحاً يواجه به عدوه ألا وهو التراب، "فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله عز وجل" ^(١)، فإذا أحب الله عز وجل عبداً هباً له أسباب النصر كلها وأيده بعنايته التي تنصره على خصمه، وتنجيه من مكروه.

وبشكل عام فإن تنزل القرآن منجماً مفرقاً على أحداث السيرة ووقائعها -والتي من ضمنها الابتلاءات- هو لون من ألوان معية الله لرسوله ﷺ، وإن لم تتضمن تلك الآيات صيغ المعية الصريحة، فما يكاد يُصاب رسول الله ﷺ بأذى إلا وتنزل آيات على قلبه لتكون له بلسماً وشفاء؛ فما أن تؤذيه أم جميل زوجة أبي لهب بوضع الأذى والشوك في طريقه، والتي كانت تمشي بالنميمة في عداوة النبي ﷺ وأصحابه، حتى تنزل سورة المسد؛ لتذكره بمعينة الله عز وجل له وحفظه من كيدها وإيذائها، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "لما نزلت {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١] جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله إنها امرأة بذية ^(٢) وأخاف أن تؤذيك فلو قمت. قال: "إنها لن تراني" فجاءت فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك هجاني؟ قال: وما يقول الشعر؟ قالت: أنت عندي مصدق. وانصرفت. قلت: يا رسول الله لم ترك؟ قال: "ما زال ملك يسترني منها بجناحيه" ^(٣).

(١) مسلم: صحيح مسلم. كتاب: الجهاد والسير. باب: في غزوة حنين. رقم الحديث: ١٧٧٧، (ج٣)، ص ١٤٠٢.

(٢) البذاء، بالمد: الفحش. وفلان بذى اللسان، والمرأة بذية... من البذاء وهو الكلام القبيح. انظر: ابن منظور: لسان العرب. ج ١٤، ص ٦٩.

(٣) الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان: المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي. تحقيق: سيد كسروي حسن. دار الكتب العلمية، بيروت. حديث رقم: ١٢٠٨، (ج٣)، ص ١١٧. البزار، أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق: مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وآخرون. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة (ط١) ١٩٨٨م. (ج١)، ص ٦٨. الحديث حسنه الألباني انظر: الألباني، محمد ناصر الدين: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه. دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة. (ط١) ١٤٢٤هـ. باب ذكر ما ستر الله جل وعلا صفيه صلى الله عليه وسلم عن عين من قصده من المشركين بأذى. حديث رقم: ٦٤٧٧. (ج٩)، ص ٢٣٦.

وبعد أن فقد نفرًا من أصحابه شهداء في أحد، تنزل آيات سورة آل عمران^(١)؛ لتبين له فضل وأجر الشهداء عند ربهم، وحين أصابه الحزن على موت عمه على غير الإسلام، تنزلت الآيات من سورة القصص، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦]^(٢)، وحين تؤذيه تلك المرأة بأن الوحي قد قلاه وتركه، تنزل الآيات من سورة الضحى، فقال تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضحى: ٣]^(٣)، والأمثلة في هذا المجال لا حصر لها.

هذا فضلاً عن تنزل قصص الأنبياء السابقين وما فيها من تسلية لقلب الرسول ﷺ وتذكيره بأنه ليس بدعاً من الرسل، فكل الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه قد لاقوا من أقوامهم ما لاقوه في سبيل دعوتهم، كل ذلك يشعره بمعية الله له في كل آن وفي كل حال، وأنه ناصر كما نصر إخوانه من الأنبياء ففي ذلك مدعاة للصبر والثبات، فحين يكذب النبي ﷺ تنزل قصص الأنبياء الذين كذبتهم أقوامهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتَهُمُ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وحين يهدد بالطرد من مكة وطنه وقريته، تنزل عليه قصة نبي الله لوط عليه السلام وقول قومه فيه، قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْهُ أَلَا لَوْ طُورَ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦]، وعند تهديده وتخويفه، تنزل عليه الآيات في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ١٣]، وحين تأمروا عليه لسجنه أو قتله، تنزل الآيات عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَلْحَزَابٌ مِّنْ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ [غافر: ٥]، وحين يتهم بالسحر والجنون فتتنزل عليه الآيات، قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ

(١) انظر: [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

(٢) ذكر البخاري ومسلم: "وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء}... انظر: البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب قوله: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء}، رقم الحديث: ٤٧٧٢، (ج٦)، ص ١١٢. مسلم: صحيح مسلم. كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله. رقم الحديث: ٢٤، (ج١)، ص ٥٤.

(٣) سبق تخريجه: انظر: ص ٤٣.

مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿الذاريات: ٥٢﴾، وعند الاستهزاء به والسخرية بما جاء به، تنتزل عليه الآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَجِزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وعند إلقاء الكفار لتلك الاقتراحات التعجيزية على النبي ﷺ والتي لا تهدف لإثبات صدق نبوته، فتنزل الآيات عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، كل تلك الآيات، وغيرها، التي نزلت حسب الوقائع والأحداث والظروف التي يمر بها رسول الله ﷺ لا سيما الابتلاءات التي مر بها وما يلاقيه من قومه، تُشعره ﷺ بالمعية الإلهية والعناية الربانية له والتي لا تفارقه طرفة عين.

واستشعار معية الله عند الابتلاء من أهم ما يعين الداعية على الصبر والاحتمال، قال القشيري في تفسير قول الله عز وجل: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨] "فما لا نجعل له خطراً عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثراً فيك، فمن أسقطنا قدره فاستصغر أمره، وإذا عرفت انفرادنا بالإيجاد، فلا يضيق قلبك بشدة عداوتهم، فإننا ضمناً كفايتك، وألا نشمتهم بك، وألا نجعل لهم سبيلاً إليك" (١).

وهذه المعية الإلهية ليست خاصة لرسول الله ﷺ بل هي عامة يستشعرها ويرى أثرها كل من دعا لمثل ما دعا له محمد ﷺ، وكل من ابتلي في سبيل شرع الله وسنة نبيه، وكل من استقام على درب دعوة الإسلام، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ

(١) القشيري، عبد الكريم بن هوازن: لطائف الإشارات. المحقق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط٣، (ج٢)، ص ٣٣٠.

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿

[فصلت: ٣٠-٣١]، وهذه المعية الإلهية والعناية الربانية لمن استقام على أمر الله قد حققت لهم "البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ ...

والمعنى: لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال،... وقال عطاء: لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم،... ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ بها في الدنيا فإنكم واصلون إليها مستقرون بها خالدون في نعيمها. ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله، فقال: ﴿ تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أي: نحن المتولون لحفظكم، ومعونتكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة، ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب ونجا من كل مخافة" (١). فما أعظمها من عطايا إلهية وبشريات خالدة، لكل من ثبت على طريق دعوته واستقام عليها.

ولاستشعار معية الله أثر مهم لمن يسلك درب الأنبياء من دعاة اليوم فهي "من أهم الصفات التي يتحلى بها الداعية ولولا هي ما جرؤ داعية أن ينطق بالحق أمام طاغية، وأتى له الجرأة وهو لا يشعر بأن القوة المطلقة معه أمام قوة هزيلة مخلوقة لا حول لها ولا قوة؟ إن الانتكاسة الشعرية عند الداعية التي يتبعها الجبن والخوف والهلع إلى آخر هذه الصفات إنما تبدأ عندما ينسى الداعية تلك الحقائق عن الله سبحانه وتعالى إما لحظياً وإما ألبدياً والعياذ بالله، من ذلك يتبين أن الشعور بمعية الله ينتج عنه أبرز هذه الصفات التي يحتاجها الدعاة إلى الحق وهي: القوة والثبات واليقين والجرأة والصبر والثقة" (٢)، فهي صفة يبني عليها صفات أخرى ضرورية لنجاح الداعية في دعوته، ومما لا شك فيه أن تعلق الداعية بكتاب الله وآياته ودراستها لا سيما آيات الابتلاء وما بها من فوائد جمة وحكم يجنيها لبناء شخصيته وصقلها بالآثار التي تدعم ثباته وصبره، واستشعاره لتلك المعية الإلهية؛ تجعله يتعامل مع الباطل بعزة وشموخ وينظر إليه من علو ويستصغر حاله ويحتقره، لأنه قد وجد الله في قلبه. فمن وجد الله ماذا فقد! ومن فقد الله ماذا وجد!.

(١) الشوكاني: فتح القدير. (ج ٤)، ص ٥٩٠.

(٢) البلالي، عبد الحميد: المصطفى من صفات الدعاة. مكتبة المزار الإسلامية. الكويت، حولي. (ط ١) ٢٠٠٠م. ص ١٢٥.

المبحث الرابع

التركيز على الهدف الأساسي وعدم الالتفات لدعاوى أهل الباطل

إن الهدف الأساسي للداعية هو تبصير الناس بالحق الذي يدعو إليه، وإظهار حقائق الإيمان لهم وكشف الباطل وعوراته، في حين يسعى أهل الباطل لعرقلة دعاة الحق عن هذه الوظيفة وتأخيرهم عنها بشتى الوسائل والطرق، ومن ذلك إشغال الدعاة بمعارك جانبية، فبدلاً من أن يصرف الداعية جل وقته في بيان حقائق الإيمان للناس وفساد الباطل ومبادئه، تراه منشغلاً في كثير من الأحيان في الرد على اتهامات وإشاعات وشبهات لا تستحق منه طول عناء، خاصة حين يكون مبعث تلك الشبهات والتساؤلات ليس البحث الموضوعي للوصول للحق واتباعه والتجرد في ذلك، وإنما مجرد المراء والجدال بالباطل.

والدارس للابتلاءات والمحن التي مرّ بها الرسول ﷺ يرى أن القرآن الكريم كان يلفت انتباه النبي الكريم ﷺ للتركيز على الهدف الرئيس من دعوته، وعدم الانشغال طويلاً بتلك المعارك الجانبية، كقول الله عز وجل: ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠]، فالآية هنا تعظ رسول الله ﷺ وكل داعية يتعرض لسب أو شتم أو سخرية بأن يربأ بنفسه عن مماثلة أسلوبهم والرد عليهم بمثل فحشهم؛ لما في ذلك من انتقاص من قدر الداعية وانشغاله عن الهدف الرئيس في دعوته، يقول الشوكاني: "واصبر على ما يقولون من الأذى والسب والاستهزاء، ولا تجزع من ذلك واهجرهم هجراً جميلاً أي: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم"^(١)، ومثلها قول الله عز وجل: ﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ۚ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧] "وقد قالوا: ﴿ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ ﴾ [ص: ٤]، وقالوا: ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۚ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، وقالوا: ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [ص: ٨]، وغير ذلك كثير، والله يوجه نبيه إلى الصبر على ما يقولون، ويوجهه إلى أن يعيش بقلبه مع نماذج أخرى غير هؤلاء الكفار، نماذج مستخلصة كريمة، هم إخوانه من الرسل"^(٢)؛ ليتعظ بهم ويسلك دربهم في مجابهة الباطل

(١) الشوكاني: فتح القدير. (ج ٥)، ص ٣٨١.

(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن. (ج ٥)، ص ٣١٦.

وأهله، ويغض الطرف عن ترهات قومه وأقوالهم الباطلة، فلا يشغل نفسه بها، ليعيش بذلك مع هدفه السامي والغالي في دعوته.

وفي موضع آخر يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر والتحمل على جهل أعدائه، وعدم الانسياق لترهاتهم وباطلهم، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ومعنى "ولا يستخفّنك" لا يستجهلنك، معناه: لا يملنك الذين لا يوقنون على الجهل واتباعهم في الغي. وقيل: لا يستخفن رأيك وحلمك، {الذين لا يوقنون} بالبعث والحساب.^(١)

والداعية الحضيف حين يرى شبهات أهل الباطل متهاوية متهاكة لا تستند لعقل ولا لمنطق ولا لدليل، ومبعثها مجرد الجدل العقيم، فإنه لا يشغل نفسه بالرد الطويل عليها، بل لعل إهمالها، في بعض الأحيان، أجدى وأكثر نفعاً من إطالة الرد عليها، وإهدار الوقت من أجلها، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، "فأقصر طريق لتحقيق انتصار الحق هو الاهتمام بعرض الحقيقة والتبشير بها، والانصراف إلى تعريف الناس بحقائق الدين وتعليمهم وتربيتهم، أما صرف الجهود في الإبحار في لجج بحور أكاذيبهم وافتراءاتهم فتضييع للوقت وإهدار للجهد، فهناك أولويات ينبغي أن تراعى من أجل الوصول إلى الأهداف، فالتعريف بالفكرة مقدم على تنفيذ ادعاءات المبطلين"^(٢).

وفي آية أخرى يطلب الله عز وجل من النبي ﷺ أثناء معاملته مع الكفار المعاندين لدعوته، بأن لا يخوض في باطلهم رداً ونقاشاً بل يجب أن يركز على أمر الله له، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يُخَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢]، فيخاطب الله تعالى نبيه أن "اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، على جهة الوعيد. واشتغل أنت

(١) البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن. (ج ٦)، ص ٢٧٩.

(٢) جرار، بسام نهاد: سياحة الفكر (مقالات في التفسير). مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية. البيرة، فلسطين. (ط ١) ٢٠١٣م. ص ٣٣٢.

بما أمرت به ولا يعظمن عليك شركهم، فإن لهم يوماً يلقون فيه ما وعدوا^(١). ولهذا يأمر الله عز وجل نبيه بالصبر على جهلهم. ولهذا لا بد للداعية أن يكون على دراية كاملة بقواعد التغيير وفقه الواقع ودراستها، ومعرفة الأولويات والضرورات في دعوته وأساليبها.

ولهذا اهتم النبي ﷺ بهذا الأمر ونبه صحابته لعدم الاكتراث لما يقوله أعداء الإسلام، والمحافظة على أخلاقهم وأن لا يهبطوا لمستوى جهلهم وقلة أدبهم، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان اليهود يسلمون على النبي ﷺ يقولون: السام عليك، ففطنت عائشة إلى قولهم، فقالت: عليكم السام واللعنة، فقال النبي ﷺ: «مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقالت: يا نبي الله، أولم تسمع ما يقولون؟ قال: "أولم تسمعي أنني أرد ذلك عليهم، فأقول: وعليكم"^(٢)، ولقد نهى الله المؤمنين عن سب آلهة الكفار وشتمها لأن في ذلك مدعاة لسب الله عز وجل ودينه فهم قوم جهلة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]^(٣)، فهذه الدعوة ليست دعوة للسب والشتم والاستهزاء، بل هي دعوة للحق بأرقى الأدلة والبراهين وقوة العقل والمنطق، فلا مجال فيها لإهدار الوقت وضياعه، وبهذا يتم التركيز والجهد على الهدف دون الخوض في المشادات الكلامية التي لا يُرجى منها فائدة وقد تؤخر الدعوة عن مسارها وهدفها.

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج ١٨)، ص ٢٩٦.

(٢) سبق تخريجه. انظر: المطلب الثاني: السخرية والاستهزاء من قبل اليهود. ص ٤٦.

(٣) انظر: الواحدي: أسباب نزول القرآن. ص ٢٢١.

المبحث الخامس

التخطيط

قد يتصور البعض أن لا حيلة لمواجهة الابتلاء سوى الاستسلام له أو التكيف معه، وهذا تصور خاطئ ولا شك؛ فالصبر على الابتلاء لا يعني بحال من الأحوال الاستسلام له، والضعف والخور في مواجهته؛ وإنما يعني البحث عن حلول والسعي الحثيث لمواجهة أسبابه والتخلص منه، واقتناص الفرص والبحث عن ثغرات في جدار الباطل والتخطيط المحكم لتحطيمه والتغلب عليه، مع ثبات على الطريق وإصرار على بلوغ الهدف وتبليغ الرسالة ورضى بقضاء الله وقدره دونما كلل أو ملل.

والدارس للابتلاءات والمحن التي مرت بالنبي ﷺ يدرك أن رسول الله كان يخطط ويبحث عن حلول للأزمات، فحين اشتد أذى قريش على الصحابة الكرام وخاف النبي الكريم ﷺ أن تستأصل قريش القلة المؤمنة في مكة، خطط لإيجاد قاعدة أخرى للدعوة في مكان آخر آمن بعيد، فكانت هجرة الحبشة، يقول صاحب الظلال: "ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح لها فيها أن تخلص من هذا التجديد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تنظر بحرية الدعوة وبحماية المعتقدين لها من الاضطهاد والفتنة... والقول بأنهم هاجروا إليها -الحبشة- لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاهاً وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا... إنما هاجر رجال ذوو عصبية، لهم من عصبيتهم - في بيئة قبلية - ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين، منهم جعفر بن أبي طالب... والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة المخزومي، وعثمان بن عفان الأموي... وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبداً... فكانت الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة، أو آمنة على الأقل للدعوة

الجديدة^(١)، قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّتَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]، والمراد هجرة الحبشة^(٢).

وحين تعاضم أذى قريش واضطهادها لرسول الله ﷺ ولصحابته في مكة لدرجة أن خططوا لإخراجه من مكة وطرده منها، وقد بدا هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، "ولم يبق من مدن الجزيرة العربية مدينة تصلح للحركة الإسلامية، وتصير قاعدة الإسلام إلا مدن بلاد الحجاز الثلاث "مكة، والطائف، والمدينة" لعدم تأثرها بغيرها وحسن موقعها، ومزايا سكانها، فإذا ما انتفت منها مكة، والطائف لم يبق إلا المدينة المنورة وإليها كانت الهجرة النبوية"^(٣).

واستطاع رسول الله ﷺ بتخطيطه الذكي والمسدد بالوحي الإلهي، أن يحول محنة الخروج من مكة إلى منحة، فكانت بيعة العقبة الأولى، ثم بعث مصعب بن عمير سفيراً إلى المدينة المنورة لينشر الإسلام في بيوتها وبهئى قاعدة من المؤمنين هنالك، ثم كانت بيعة العقبة الثانية، ثم بعد ذلك كان الأمر بالهجرة إلى المدينة، وكانت هجرته ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، وقد فصلت كتب السيرة^(٤) في خطة الرسول في الهجرة من حيث اختيار المكان والزمان وأساليب التمويه وتأمين مصادر المعلومات والزاد والطعام ومكوته في الغار إلى غير ذلك، وقد عرج القرآن على ذكر أحداث الهجرة في آية سورة التوبة دونما تفصيل لمراحل تلك الخطوة، فقال تعالى: ﴿إِلَّا

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن. (ج ١)، ص ٢٨-٢٩.

(٢) انظر: الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن. (ج ٦)، ص ١٧. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. (ج ٤)، ص ٤٩١. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: تفسير الماوردي (النكت والعيون). المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، (ج ٣)، ص ١٨٨.

(٣) غلوش، أحمد أحمد: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني. الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط ١) ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م. ص ٣٢.

(٤) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية. (ج ٢)، ص ٢٢٠. الحلبي، علي بن إبراهيم: السيرة الحلبية إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون. دار الكتب العلمية - بيروت. (ط ١) ١٤٢٧هـ (ج ٢)، ص ٥٧. أبو شهبه، محمد بن سويلم: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة. دار القلم - دمشق، (ط ٨)، ١٤٢٧هـ (ج ١)، ص ٤٥٧. الندوي، أبو الحسن علي: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي. دار ابن كثير - دمشق. (ط ١٢)، ص ٢٢٤ - ٢٤٥. أبو زهرة، محمد بن أحمد: خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم. دار الفكر العربي - القاهرة، (ط ١) ١٤٢٥هـ (ج ١)، ص ٤٥٩. النجار، محمد الطيب: القول المبين في سيرة سيد المرسلين. دار الندوة الجديدة - بيروت - لبنان. ص ١٧٠.

تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

ورغم ما بذله النبي ﷺ من هذه التدابير الأمنية وتلك الخطط المحكمة من التواري عن قريش والأخذ بالأسباب إلا إنه يبقى بحاجة إلى تدبير الله وتوفيقه وإعانتة وحفظه له، ليعلم البشرية جمعاء حقيقة التوكل على الله فيعتمد على مسبب الأسباب سبحانه وتعالى.

ولعل من أبرز الأحداث التي يظهر فيها التخطيط النبوي الحكيم في مواجهة الابتلاءات وبذل الأسباب للفاك منها، ما كان منه ﷺ بعد غزوة الأحزاب، عندما لاحظ أن مدينته محاطة من جوانبها بالمخاطر، ففي الجنوب قريش تتربص وتتحين الفرص للانقضاض على المدينة، والقضاء على دعوة الإسلام في مهدها، وفي الشمال يهود خيبر يتآمرون مع قريش لإطباق الحصار على المدينة من جهاتها، فيغدو رسول الله ﷺ وصحبه بين فكي كمانشة، وهذا لون من ألوان الابتلاء يحتاج لخطة محكمة للخروج منه، فخطط رسول الله ﷺ لكسر هذا الحصار من خلال تحديد أحد الطرفين؛ قريش أو خيبر، فكانت عمرة الحديبية كتحرك سياسي يهدف لصناعة حدث ما، يستغله رسول الله ﷺ لكسر الحصار، ونتج عن ذلك اتفاق صلح الحديبية، والذي كان من بنوده وقف الحرب مع قريش عشرة أعوام^(١)، وبهذا حَيَّدَ النبي ﷺ جبهة قريش وأبعدھا، وتفرغ للقضاء على اليهود في الشمال دون خوف من قريش^(٢)، وهذا ما كان فعلاً على أرض الواقع، حيث إن النبي ﷺ توجه للقضاء على يهود خيبر بعد الحديبية مباشرة، " فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرم... ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر"^(٣). ولهذا فقد سمي القرآن الكريم صلح الحديبية فتحاً مبيناً كما جاء في سورة الفتح التي نزلت عقب صلح

(١) ذكر البخاري في حديث طويل مقابلة هرقل مع أبي سفيان عندما سأله عن رسول الله ﷺ " ... قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها..." انظر: البخاري، صحيح البخاري. كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله. رقم الحديث: ٧، (ج ١)، ص ٨. وذكر ابن حجر في شرحه للمدة: " قوله في المدة يعني مدة الصلح بالحديبية ... وكانت في سنة ست وكانت مدتها عشر سنين كما في السيرة". انظر: ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري. ج ١، ص ٣٤. انظر: الواقدي، محمد بن عمر، المغازي. (ج ٢)، ص ٦١١.

(٢) انظر: عرموش، أحمد راتب: قيادة الرسول السياسية والعسكرية. دار النفائس، بيروت، لبنان. (ط ٢) ١٩٩١م. ص ٩٣-١٠٥.

(٣) انظر: ابن هشام، عبد الملك الحميري المعافري: السيرة النبوية لابن هشام. (ج ٢)، ص ٣٢٨.

الحديبية، عن قتادة، أن أنس بن مالك، حدثهم، " قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ [الفتح: ٢] إلى قوله: ﴿ فَوَرَّأَ عَظِيمًا ﴾ مرجعه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: « لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعا »^(١)، وقال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير^(٢)، ولذا فإن سورة الفتح التي نزلت على رسول الله ﷺ في الحديبية بعد ما أصاب المسلمين ما أصابهم من جزاء منع قريش لهم وصدهم عن المسجد الحرام ومهادنة الرسول ﷺ لهم، ومعارضتهم لذلك الصلح، والذي قد تمثل على لسان عمر بن الخطاب الذي قال: " فأنتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألسنت نبي الله حقا، قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل، قال: «بلى»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام»، قال: قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به»^(٣)، فجاءت الآيات مؤنسة للمؤمنين، ومذهبة عنهم حزنهم وقد حملت في طياتها كثيرا من المبشرات للمسلمين، والتي كان في ذروتها بشرى فتح خيبر، فقد ذكر كثير من المفسرين أن المقصود بالفتح القريب في قوله تعالى: " ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] هو فتح خيبر^(٤)، وما نالوه من هذا الفتح من مغنم كثيرة وزعت عليهم " وامتألت أيدي المؤمنين خيرا، ولم يفتحها إلا أهل الحديبية ولم يشركهم فيها أحد^(٥).

(١) مسلم: صحيح مسلم. كتاب: الجهاد والسير. باب: صلح الحديبية في الحديبية. حديث رقم: ١٧٨٦. (ج٣)، ص ١٤١٣.

(٢) الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري: الوسيط في تفسير القرآن المجد. (ج٤)، ص ١٣٣.

(٣) البخاري: صحيح البخاري. كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. رقم الحديث: ٢٧٣١، (ج٣)، ص ١٩٣.

(٤) مجاهد، أبو الحجاج بن جبر المخزومي: تفسير مجاهد. تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل. دار الفكر الإسلامي الحديث، مصر. (ط١) ١٩٨٩م. ص ٦٠٨. الطبري: جامع البيان. (ج٢١)، ص ٢٧٨. الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن. (ج٩)، ص ٤٨. البغوي: معالم التنزيل. (ج٤)، ص ٢٢٨. الزمخشري: الكشاف. (ج٤)، ص ٣٤٠.

(٥) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (ج٥)، ص ١٢٥.

جاءت هذه السورة لتبين سداد خطة النبي ﷺ في تهميش قريش لهذه المرحلة في وقف القتال معها والتفرغ في تصفية المدينة من اليهود وخطرهم، ولذا فقد تحقق النصر عليهم وتم جلاؤهم من حدود دولة الإسلام، والذي كان الممهّد لفتح عظيم ألا وهو فتح مكة.

إن القراءة السطحية العاجلة للابتلاءات التي مرّ بها الرسول ﷺ، تبرزها على أنها أحداث وقصص من قبل أعداء الدعوة وقد قابلها هو وصحابته بمجرد الصبر والاستسلام وانتظار الفرج من السماء دونما إعداد لعدّة، ولا تخطيط ولا بحث عن أسباب الخلاص، ولكن الدراسة المتعمقة والتحليل وربط الأحداث بأسبابها، ومقدماتها بنتائجها، يبرز بوضوح كيف كان النبي ﷺ يعالج الابتلاء بتخطيط محكم وبحث عن منافذ وفرص للخلاص، وباستغلال للظروف المحيطة ورد أذى أهل الباطل إلى نحورهم من خلال ذلك التخطيط، كل ذلك مع توكل على الله، وصبر جميل، واستعانة بالله عز وجل، وهذا من أهم الآثار التي يخرج بها الداعية المسلم عند دراسة ابتلاءات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم.

لأجل ذلك لا بدّ للداعية من أن يخطط لمجابهة عدوه، قبل وقوع الأذى عليه، لا أن يخطط بعد وقوعه، فالباطل وقوى الكفر بجميع مسمياتهم واختلاف درجاتهم يخططون دوماً لباطلهم ومحاربة الحق ومتابعة أصحابه دون كلل أو ملل، فحريّ بصاحب الحق والداعي له أن يكون هو كذلك في تخطيط دائم مستمر لمواجهة الأزمات والابتلاءات؛ لأنه يملك الحق الذي يدعوا للعمل دون كسل أو ملل، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وهذا هو شأن قدوته ﷺ الذي كان دائم اليقظة في كل لون من ألوان الابتلاء الذي تعرّض له، آخذاً بأسباب النصر والتمكين، متوكلاً على الله سبحانه وتعالى في كل أحواله.

المبحث السادس

اليقين بنصر الله

مما لا شك فيه أن نصر الله لدينه ودعوته وأوليائه هو يقين ثابت في كثير من آيات القرآن الكريم، وإن الدارس والمتبصر لتلك الآيات الكريمة يجعل النفس في اطمئنان دائم لما يسعى لتحقيقه ويرنو إليه، ويقين وثقة بنصر الله له ولو بعد حين، فلا تهزه الشهوات ولا الشبهات ولا الابتلاءات، ولعل من سنن الله في الدعوات أن يأتي النصر بعد الابتلاء والامتحان، فالابتلاء هو طريق التمكين والنصر، وذلك لحكم عديدة ذكرنا بعضها في الفصل الأول من هذه الدراسة^(١)، ولذا تجد أن كثيراً من الآيات القرآنية التي جاءت لتبشر المؤمنين الثابتين بالنصر والتمكين، قد جاءت بعد ذكر صنف أو أصناف من الابتلاءات؛ وما ذلك إلا ليعطينا إشارة واضحة مهمة في أن النصر لا يأتي إلا بعد الابتلاء، مما يجعل الداعية وهو في خضم الابتلاء ومعمراته يثق بنصر الله له، بل وينتظره ويرقبه في كل جولة وصوله من الابتلاءات التي يمر بها.

وقد خاطب الله عز وجل في القرآن الكريم نبيه الكريم ﷺ وأتباعه إلى يوم الدين، موضحاً لهم تلك السنة الإلهية في الدعوات، بأن لا يتأتى النصر إلا بعد معارضة أهل الباطل للحق وتكذيبه، وإيذاء أصحابه وأتباعه لصددهم عنه، وبعد صبر أهل الحق في وجه الباطل، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وفي موضع آخر يبين الله عز وجل تلك الحقيقة القرآنية التي تضيء في النفس الراحة والسعادة واليقين بنصر الله، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنْهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْمُغْلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، والمراد من {كلمتنا} هو "الموعود بعلوهم على عدوهم في مقامات الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة"^(٢)، وقد أكد هذا المعنى في آية أخرى هي قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(١) انظر: مبحث: الحكمة من الابتلاء من هذه الدراسة. ص ١٢.

(٢) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل. (ج ٣)، ص ١٤٠.

[المجادلة: ٢١]، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱللَّأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١]، وقد جاءت الآيات ومثلها كثير في سياق الحديث عما يلاقيه النبي ﷺ وأتباعه من أذى واضطهاد وابتلاء لتؤكد لهم بأن نصر الله قادم بعد الابتلاء، وأن الله قد حكم في هذه الآيات بنصر الأنبياء ومن سلك دربهم ودعا بدعوتهم بعد حقبة زمنية من الابتلاءات والمحن وثبات الدعاة وصبرهم، وهزيمة الظالمين المعاندين لتلك الدعوة وأصحابها، وهذا ما يجعل الداعية على يقين بنصر الله مهما اشتد به الابتلاء.

بل إن بعض الآيات الأخرى أشارت إلى أن النصر ينتزل بعد أشد درجات الابتلاء، وأحلك الظروف وزلزلة القلوب من شدة وطأته عليهم، كقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَآسَآءُ وَٱلضَّرَآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ ٱلرُّسُلُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ ٱللَّهُ ۚ ءَلَا إِنَّا نَصُرُ ٱللَّهُ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وكقوله عز وجل: ﴿ حَتَّى إِذَا أَستَيْسَسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَآءَهُم نَصْرُنَا فَنُجِّى مَن نَّشَآءُ ۚ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠]، روى البخاري في صحيحه "عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: { إِذَا أَستَيْسَسَ ٱلرُّسُلُ } قال: قلت: أَكُذِّبُوا أَمْ كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: «كُذِّبُوا» قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن؟ قالت: «أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك» فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا، قالت: «معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك برئها» قلت: فما هذه الآية؟ قالت: «هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم، وصدقوهم فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك»^(١).

ويقول سيد قطب في ظلال هذه الآية: "إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكره والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون

(١) البخاري: صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب قوله تعالى: { حتى إذا استيأس الرسل }، رقم الحديث: ٤٦٩٥. (ج٦)، ص

فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتكر الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة. إنها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغى وبيطش ويغدر. والرسول ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كذبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحر والضييق فوق ما يطيقه بشر. وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يريج نفس الرسول هذه الرجة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً^(١)، فنصر الله عز وجل ليس رخيصاً ولا يتأتى بكل هدوء ودعة، بل إنه يكلف كثيراً من الدماء والأشلاء في سبيله، ومن الأرواح التي تزهق لتحقيقه، وهذا مدعاة لعدم التفريط به إن تحقق، والتمسك به وتقديم الغالي والنفيس لتثبيته في الواقع الذي يعيشه.

أما سورة الحج فقد جعلت نصر الله لنبيه حتمية يقينية ووعداً لا يتغير ولا يتبدل، ولهذا فقد طلبت الآية ممن لا يصدق هذا الوعد وتلك اليقينية أن ينحر نفسه بالموت إن كان يغيظه ذلك، في صورة من أروع صور اليقين بنصر الله وإن اشتد الابتلاء والكرب واستبعد أعداء الإسلام ذلك، قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج: ١٥]، يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "والمعنى: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن من حاسديه وأعدائه أن الله يفعل

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن. (ج ٤)، ص ٢٠٣٦.

خلاف ذلك ويطمع فيه، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه، فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه، بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلا إلى سماء بيته فاخنتق، فلينظر وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه؟^(١)، واهم من ظن أنه مانع لوعده الله تطبيقه، ولنصر الله تنزيهه، فالأمر كله بيد الله الناصر المعزّ سبحانه.

ولقد تحقق هذا اليقين بنصر الله في قلب النبي ﷺ وهو في خضم الابتلاء والأذى، ففي حادثة الهجرة وقد طرده قومه ولحقوا به لينالوا منه، فهو وصاحبه في الغار يطمئن قلبه فيقول له ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(٢) فهو على يقين كامل بأن الله لن يتركه وحده مع من حاربوه وعادوه.

وفي الحديبية وقد أصاب الصحابة ما أصابهم من الحزن والغيب لمنعهم من أداء العمرة، وما نتج عن اتفاق في ظاهره الإجحاف بالمسلمين، فعارض الصحابة ذلك "فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألسنت نبي الله حقا، قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل، قال: «بلى»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتكم أنا نأتيه العام»، قال: قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به»^(٣)، فهذا هو اليقين بنصر الله وتحقيق وعده.

كل هذه الآيات وعند تنزلها على النبي ﷺ أوجدت في نفسه وفي قلوب أتباعه ذلك اليقين بنصر الله وتحققه، ولهذا صبروا على ما أؤذوا وتحملوا الشدائد والمصاعب، وما دام أن الداعية على يقين بما يحمل من عقيدة وفكر ومنهج حياة ويقاوم بذلك ديجور الباطل وظلامه، وعلق قلبه بآيات ربه ودرسها دراسة وافية، ومنها الآيات التي ذكرت ووصفت بعض ألوان الابتلاءات فهذا يشكل في شخصيته تلك الآثار الراقية في علو قدره ورفعة منزلته.

(١) الزمخشري: الكشاف. (ج٣)، ص ١٤٧.

(٢) البخاري: صحيح البخاري. كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: {ثاني اثنين إذ هما في الغار}، رقم الحديث: ٤٦٦٣، (ج٦)، ص ٦٦.

(٣) سبق تخريجه: ص ١٢٧.

وهكذا يتيقن الدارس لابتلاءات رسول الله ﷺ بأن نصر الله لمن يحملون رسالة الإسلام يقينية كونية وسنة إلهية، وهذا اليقين من أهم مصادر قوة الداعية وإصراره على الحق الذي هو فيه، وثباته في طريقه، إذ لولا هذا اليقين والأمل لفتك الإحباط والانهمام النفسي بحامل الرسالة وأقعدته عن مواصلة الدعوة.

لعل دراسة الابتلاءات والمحن التي مرّت بالنبي ﷺ تسعف الداعية اليوم في استلهاً هذه الدروس وتمدّه بعوامل المواجهة للباطل وتجعله أكثر قوة وعزيمة لأنه يستمدّ ذلك من كتاب الله، عز وجل، الذي يكرّس فيه كل معاني الصبر والثبات على طريق الدعوة، والثقة بصحة الطريق، واليقين بنصر الله وتأبيده له الذي يدفعه للعمل والجد، ويبقى دائماً الاستشعار لمعيته سبحانه وتعالى، مقبلاً على دعوته، دائماً التخطيط لها ولرفعته ولسموها، وتاركاً خلفه كل جدال مع الباطل ليس وراءه فائدة ترتجى، عندها يلقي الله في فرح وسرور لأنه أدى ما عليه وقام بواجبه تجاه دينه ودعوته.

الخاتمة

في نهاية هذه الرسالة وبعد البحث والتتقيب في موضوع الابتلاءات الخارجية والمحن التي مرَّ بها النبي ﷺ في حياته أودّ تلخيص أهم النتائج التي قد وفقني الله لها:

(١) لا يكاد يختلف اثنان من علماء اللغة على أن الابتلاء هو الاختبار، وليس ثمة فرق بين استخدام اللفظ اللغوي والمعنى الاصطلاحي.

(٢) الابتلاء سنة من سنن الله في الكون، ويكون في الخير والشر على السواء.

(٣) الابتلاءات الخارجية هي التي نتجت عن طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وجهه ﷺ بدعوة الحق التي أخذت تشق طريقها وبيزغ نورها، مما جعل أعداء الإسلام من كفار العرب ويهود والمنافقين للوقوف ضده ﷺ وضد دعوته وأتباعه.

(٤) الابتلاء له فوائد عظيمة تعود على المرء في دينه ودنياه وآخرته إذا صبر على ما أصابه واحتسب الأجر من الله، وهو علامة اصطفاء ومحبة من الله للعبد ورفعة لمنزلته وزيادة لحسناته.

(٥) يقع الابتلاء لغايات نبيلة وحكم ومقاصد يريد بها الله، قد يُعلم بعضها ويُجهل الآخر. فمنها: أن لا يتحقق النصر والتمكين إلا بعد الابتلاء والمحن. وما ذلك إلا لتصفية الجماعة القائمة على أمر الله والتمايز بين أتباعها. ومنها أيضاً: تطهير النفس وتركيتها من الأسقام والأمراض. وحثها على التهذيب والمحاسبة والمراجعة لتقويم سلوكها وأعمالها.

(٦) لم يكن الابتلاء قاصراً على أحد، ولهذا لا ينجو منه أحد برّ أو فاجر مؤمن أو كافر، ولو نجا منه أحد لنجا منه الأنبياء والمرسلون، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ.

(٧) إن صور الابتلاءات والمحن التي عصفت بالنبي ﷺ في حياته الدعوية متنوعة ومتجددة، فكلما حانت الفرصة لأعداء الإسلام لاستخدام أسلوب من أساليب الابتلاء فلا تجدهم يتأخرون في تحقيقه وتنفيذه، وإن استخدم سابقاً.

(٨) من صور الابتلاءات التي مورست ضدّ النبي ﷺ ودعوته: السخرية والاستهزاء به ﷺ وبما جاء به. ومحاولات المساومة على الدين باقتراحات باطلة، والإعراض عن دعوته ومعاندتها، والمكر به لسجنه وحصاره في شعب أبي طالب، ومنها نفيه وطرده ﷺ من

أرضه مكة ومطاردته للقبض عليه. ناهيك عن التهديد والوعيد وتخويفه بإلحاق الضرر به. ومحاولات تشويه صورته من خلال التهم والحرب الإعلامية عليه. ومحاولات القتل وتحقيق الأذى الجسدي به ﷺ.

٩) من صور الابتلاءات، يظهر لنا جلياً خطورة الإعلام وتأثيره على الدعوة وأتباعها، وأيضاً تأثيره على عامة الناس بالخوف من اللحوق بركب الدعوة وأهلها.

١٠) إن دراسة هذه الابتلاءات الخارجية التي تعرّض لها رسول الله ﷺ تضيء على النفس آثاراً عظيمة تعمل على صناعتها وبنائها بناءً واعياً تصقل من شخصية الداعية فلا تهزّه شهوة قلبه ولا شبهة عقله.

١١) من آثار هذه الابتلاءات في بناء شخصية الداعية؛ الصبر والثبات على الطريق لاسيما عندما يقارن الداعية بين ما أصابه من ابتلاء وبين ما أصاب رسوله ﷺ من ابتلاءات جمّة. ١٢) القرآن الكريم حين يسرد قصص الأنبياء والمرسلين والتي من محطات الابتلاءات وما تعرضوا له، إنما يهدف بذلك إلى تسليّة قلب النبي ﷺ وأتباعه وإجلاء الحزن عنهم، مما يثبت قلوبهم ويكون في ذلك مدعاة للصبر والتحمل.

١٣) كثير من السور القرآنية التي ذكرت في آياتها صنوفاً من الابتلاءات، تذكر بعد ذلك الوصية بالصبر والتحمل؛ لتؤكد لنا أن من أهم الدروس والعبر المستفادة من الابتلاءات الصبر والتحمل الذي يبني شخصية الداعية في تعامله مع مشاق الحياة.

١٤) الابتلاء دليل على صدق الدعوة، فما إن جهر بها إلا وقف في وجهها دعاة الباطل، وهذا هو حال الأنبياء في دعوتهم وحال نبينا ﷺ، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على صحة الطريق، والذي يعدّ أثراً من آثار الابتلاءات على شخصية الداعية.

١٥) نجد في القرآن الكريم تلازماً بين الأمر بالدعوة إلى الله والأمر بالصبر، وكأنهما قرينان لا يفترقان، وهذا ما يؤكد أنه لا دعوة بدون ابتلاء، ولا يحدث النصر والتمكين للدعوة إلا بعد التمهيد لأتباعها بالابتلاء والمحن.

١٦) إن الثقة بصحة الطريق من أهم الأسلحة التي يمتلكها الداعية ليجابه بها أعداءه، والتي تولد في النفس القدرة على التحمل والصبر، في حين إن أصابه شك بما يحمل من فكر ودعوة؛ فسرعان ما يصرف نفسه عن ألم الدعوة وأوجاعها، فيتركها خلف ظهره.

(١٧) من آثار الابتلاءات في بناء شخصية الداعية أنها تجعله يستشعر معية الله له في كل لون من ألوان الابتلاء، لاسيما عندما يتذكر ابتلاءات النبي ﷺ التي ظهرت فيها جلياً معية الله له في كل ابتلاء نزل به، فهذه المعية ليست خاصة لرسول الله ﷺ بل هي لكل من استقام على أمر الله ودينه، وإن استشعار هذه المعية يجعل للألم حلاوة وهو ما يدفعه للصبر والثبات وعدم الاستسلام.

(١٨) إن أهل الباطل يسعون لعرقلة الدعاة عن وظيفتهم السامية بكل الطرق والوسائل والتي منها؛ محاولة إشغالهم بسفاسف الأمور ومجادلات ومشادات كلامية هنا وهناك؛ لإبعادهم عن هدفهم الدعوي في تبصير الناس الحق وكشف الباطل وزيفه، فيجب على الداعية أن يكون على دراية كاملة بقواعد التغيير وفقه الواقع ودراساتها ومعرفة الأولويات والضرورات في دعوته وأساليبها، وأن لا تجرّه عاطفته إلى تلك المشادات الكلامية التي لا يرجى منها فائدة، والتركيز على الهدف الأساسي للدعوة وعدم الالتفات لدعاوى أهل الباطل، فلا مجال في الدعوة لإهدار الوقت وضياعه دون فائدة.

(١٩) من أهم الآثار في بناء شخصية الداعية التي يستنتجها الدارس من ابتلاءات النبي ﷺ ضرورة التخطيط لمجابهة الابتلاء وعدم الاستسلام له أو اليأس في محاربته، والقُدوة في ذلك رسول الله ﷺ الذي كان يخطط ويبحث عن حلول للأزمات ولا يستسلم لها. فكم من ابتلاء حوّل التخطيط من محنة إلى منحة حققت الفوائد الجمّة على مستوى الدعوة وأهلها.

(٢٠) نصر الله لدينه وأوليائه هو حقيقة قرآنية لا تتغير ولا تتبدّل، وإن تأخر النصر فلحكمة هو يراها سبحانه، وهذا المعنى يجب أن يكون يقيناً في قلب الداعية لا يتزعزع بكثرة الابتلاء أو قلته. وإن هذا اليقين هو من أهم مصادر قوة الداعية وإصراره على الحق الذي هو فيه، وثباته عليه، إذ لولا هذا اليقين والأمل بنصر الله لفتك الإحباط والانهزام النفسي بالداعية وأثقل من كاهله فأقعدته. فالعبرة بالنتائج والعاقبة للمتقين مهما اشتدت المصائب وتعاضمت الكرب.

(٢١) إن طريق الدعوة لم يعبد بالورود والرياحين، بل هو طريق شاقّ معبّد بالأشلاء والشهداء، والتضحيات الجسام، فالنصر لا يأتي بكل هدوء ودعة بل يكلف كثيراً من الأشلاء والأرواح التي تزهق في سبيل تحقيقه، فمن استعجل النصر قبل أوانه عوقب بحرمانه.

مسرد الآيات

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
البقرة	﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالْثَمَرَاتِ ۖ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴾	١٥٥	١٠
	﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ ﴾	٢١٤	١١
	﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ... ﴾	٢٤٧	١٥
	﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ... ﴾	٢٤٩	١٦
	﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾	٢٥١	٢٤
	﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ ... ﴾	١٤٦	٣٠
	﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾	٨٩	٣١
	{يَسْبِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ...}	٤٠	٣٢
	{وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ...}	١٤٠	٣٣
	{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ ...}	٩١	٣٣
	{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيطِينِهِمْ ...}	١٤	٤٦
	{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ ...}	١١٨	٦٦
	{أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ..}	١٠٨	٦٦
	{وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَن نُّؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ...}	٥٥	٦٧
	{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا ...}	١٤٢	٦٩

البقرة	٦٩	١٤٣	{ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ... }
	٧٠	٢٦	{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ... }
	٩٤	٨٧	﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ... ﴾
	١٠٤	١٥	{ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }
	١١٩	١١٨	{ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ... }
	١٣١	٢١٤	{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ... }
آل عمران	١٠	١٨٦	﴿ تَتْلُونَهُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ ... ﴾
	١٣	١٧٩	﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ ... ﴾
	٢٠/١٨	١٥٢	﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ... ﴾
	٣٢	٧١	{ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ ... }
	٣٦	١٨٨	{ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُخَيَّبُونَ أَنْ تَحْمَدُوا بِمَا لَمْ }
	٣٩	١٧٦	{ وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ ... }
	٧٨	١٠٠	{ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ .. }
	٩١	١٢٨	﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ .. ﴾
	٩١	١٥٣	{ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ ... }
النساء	٣٨	٨٨	{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا }
	٤٥	٤٦	{ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا ... }
	٧٥	٨٣	{ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ ... }
	٧٦	٨٨	{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا }
	٧٩	٧٨	{ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ ... }
المائدة	٢٥	١٠٤	{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا ... }

٣٤	٨٢	{ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ ... }	
٤٤	٥٨	{ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ... }	
٥٤	٤٩	{ وَأَنَّ أَحَكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ ... }	
١٦	٤٢	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ ... ﴾	الأنعام
٤١	١٠	{ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ... }	
٤٢	١٢٤	{ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ }	
٥٣	٥٢	{ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }	
١١٨/٥٦ ١٢٩	٣٤	{ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا ... }	
١١٥ / ٥٧	٣٣	{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ... }	
٦٥	٨	{ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ ... }	
١١٩	١٠	{ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا ... }	
١٢٢	١١٢	{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي ... }	
١٢٣	١٠٨	{ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا ... }	
٣٠	١٥٧	{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ ... }	الأعراف
١١١	١٢٨	{ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ ... }	
٢٨	٣٣	﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ ... ﴾	الأنفال
٢٩	١٣-١٢	﴿ سَأَلِقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا ﴾	
٨٣/٨٢/٢٩ ٩٠/٨٦ ١١٤/١٠٤ ١٢٥	٣٠	﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾	
١٨	-١١٧	﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ ... ﴾	التوبة

١١١/٢١	٢٥	﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ ...﴾	
٣٦	٨٢-٨١	{ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ ... }	
٤٦	٦٥	{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ ... }	
٧٥/٤٨	٦١	{ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ ... }	
٨٦/٧٥	٨١	{ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا ... }	
٨٠	٤٧	{ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }	
١٢٦/١١٤	٤٠	{ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ... }	
٩٦	٧٤	{ وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا }	
١٢٨	١٠٥	{ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ... }	
٦٧	٩٧-٩٦	{ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... }	يونس
١١٢	٣٨	{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ... }	
١٠٢/٩٩	١٢٠	{ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ ... }	هود
١٠٢	١١٢	{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا ... }	
١٠٢	١١٥	{ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }	
١١٢	١٣	{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ ... }	
١٣	٥٦	﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ...﴾	يوسف
١٦	٥٣	﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	
١٣٠	١١٠	{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ ... }	
٣١	٤٣	{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ... }	الرعد
١١٨/٨٢	١٣	{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ ... }	إبراهيم
٥٩	٦	{ وَقَالُوا يَتْلُو الْذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ }	الحجر
١١٥	٩٨-٩٥	{ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ... }	

النحل	{ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي }	١٠٣	٩٩/٦٢
	{ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ }	١٠١	٩٩
	{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ ... }	١١٠	٩٩
	{ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ... }	١٢٧	١٠٠
	تعالى: { أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... }	-١٢٥ ١٢٧	١٠٨
	{ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ... }	-١٢٧ ١٢٨	١١٩
	{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا ... }	٤١	١٢٥
الإسراء	{ فَسَيَنْغَضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ ... }	٥١	٤٣
	{ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا ... }	٧٣	٥١
	{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ... }	٤٧	٦١
	{ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ... }	٩٠-٩٣	٦٤
	{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ... }	٥٩	٦٧
	{ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ... }	٧٦	٨٣/٨١
	{ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا ... }	٧٣	١١٦
الكهف	{ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... }	٢٨	٥٣
مريم	{ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا ... }	٦٤	٧٤
الأنبياء	﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾	٣٥	٩
	{ وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ... }	٣٦	٤٢
	{ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ ... }	٥	٥٨
الأنبياء	{ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا ... }	٩٨	٧٠

		{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ }	١٠١	٧٠
		{ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ }	١٠٥	١١١
الحج		﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ وَعْدُهُ وَإِنَّ يَوْمًا...﴾	٤٧	٢٨
		{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى ... }	٥٢-٥٤	١٠٨
		{ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }	٤٠	١١١
		{ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ ... }	١٥	١٣١
		{ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ }	٧٠	٥٩
المؤمنون		{ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ }	١١٠-١١١	١٠٥
		{ ... }		
النور		{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا حَسْبُهُ شَرًّا لَكُمْ ... }	١١	٧٤
الفرقان		{ وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلْهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا }	٤١	٤١
		{ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا }	٩	٦١
		{ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ }	٤	٦٣/٦٢
		{ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً ... }	٥	٦٣
		{ إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ... }	٤٢	١٠٣
الشعراء		{ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }	٢١٤	٢٤
		{ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ }	٢١٠	٦٢
النمل		{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ ءَالَ لُوطٍ ... }	٥٦	١١٨/٨٢
		{ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ }	٧٩	١١٠
القصص		{ وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ أَهْدَىٰ مَعَكَ تَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِنْ ... }	٥٧	٧١
		{ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ }	٨٥	١١٥
		{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ .. }	٥٦	١١٨

العنكبوت	﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ... ﴾	٣-٢	١٤
	﴿ وَدَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ... ﴾	٥٥-٥٣	٢٩
الروم	{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوفُونَ }	٦٠	١٢٢
لقمان	{ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ ... }	١٧	١٠٨
السجدة	﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ... ﴾	٢٤	١٣
	{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا ... }	٣	٥٧
الأحزاب	{ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا }	٤٥	٣٠
	{ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْهْلُ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ... }	١٣	٧٦/ ٣٧
	{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ... }	١٨	٧٥/٣٧
	{ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ... }	٦٠	٧٨
	{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ ... }	٢١	٩٨
فاطر	{ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ ... }	٨	٣٠
يس	{ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ }	٧٩-٧٨	٢٦- ٢٥
	{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ }	٦٩	٥٨
الصافات	{ وَيَقُولُونَ أَيُّنَا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ }	٣٦	٥٨
	{ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ }	١٧١- ١٧٣	١٢٩
ص	{ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا }	٨	١٢١ / ٤٣
	{ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ }	٤	١٢١ / ٦١ / ٥٦
	{ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ }	١٧	١٢١ / ١١٥
	{ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ }	٥	١٢١

الزمر	{ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ... }	٦٤-٦٦	٥٢
	{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ... }	٣٦	٨١
الزمر	{ إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ }	١٠	١٠٥
غافر	{ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ ... }	٥	١١٨/٨٩
	{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ... }	٥١	١٣٠
فصلت	{ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ... }	٣٣	١٠٢
	{ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ ... }	٣٣-٣٥	١٠٨
	{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ ... }	٣٠-٣١	١٢٠
الزخرف	{ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ }	٣١	٤٢
	{ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }	٤٣	١١٠
الدخان	{ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِجْنُونٌ }	١٤	٦٢
الجاثية	{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ... }	١٨	١١١
الأحقاف	{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ... }	١٠	١٠٠ / ٣١
	{ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ... }	٢٩	١٠٠ / ٩٢
	{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ... }	٨	١٠٠
	{ وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ ... }	٢١	١٠١
	{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ... }	٣٥	١٠١
محمد	{ وَلَتَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَا ... }	٣١	١٥
	{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ تُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ }	٣٠	٣٤
	{ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ ... }	٢٠	٣٥
	{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ ... }	١٦	٧٥ / ٤٧
	{ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ... }	١٣	٨٤

الفتح	{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ {	٢	١٢٧
	{ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...{	١٨	١٢٧
الحجرات	{وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ... {	٩	٧٦
الذاريات	{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ ... {	٥٢	١١٩
الطور	{أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ {	٣٣	٥٧
	﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾	٤٨	١١٦ ١٠٢/٩٦
	{ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ ... {	٣٣-٣٤	١١٢
القمر	{ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ {	٢	٦٥
المجادلة	{وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ...{	٨	٤٦
	{ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ ... {	١٠	٧٩
	{ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ {	٢١	١٣٠
الحشر	{وَأُولَآئِ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي ...{	٣-٤	٣٢
	{لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا تَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ ...{	١٢	٣٩
	{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ...{	١١	٧٦
	{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ...{	١-٢	٩٤
المتحنة	{تُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ {	١	٨٥
المنافقون	{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ ...{	٥	٣٨
	{ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ ...{	٧-٨	٧٧
الملك	﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ...{	١-٢	١٠
القلم	{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ {	٩	٥٢
	{وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ... {	٥١	٥٩

		{ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨	١٠٣
الحاقة		{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ...}	٤١ / ٦١
المعارج		{فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ ...}	٣٦-٣٧ / ٢٨
المعارج		{فَذَرَهُمْ تَخُوضُوا وَتَلَعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ}	٤٢ / ١٢٢
الجن		{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا}	١ / ٩٢
		{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}	١٩ / ٩٢
المزمل		{ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا }	١٠ / ١٢١
المدثر		{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ...}	١٨-٢٦ / ٦١
		{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ...}	٤٩-٥١ / ٢٧
		{فَقَالَ إِنِّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ}	٢٤ / ٦٠
		{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنْشَرَةً}	٥٢ / ٦٤
القيامة		{فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ ...}	٣١-٣٣ / ٢٧
التكوير		{وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ}	٢٢ / ٦٠
		{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ}	٢٥ / ٦٣
المطففين		{فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ}	٣٤ / ١٠٤
الضحى		{وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ}	٣-١ / ١١٨/٤٣
العلق		{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿١﴾ أَنْ رَّأَاهُ اسْتَغْنَىٰ ...}	٦-١٣ / ٨١
العصر		{إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا ...}	٣ / ١٠٨
الكوثر		{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}	٣ / ١٠٤/٤٣
الكاغرون		{قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَهُوَ قَوْلُ رَبِّكَ الَّذِي عَلَّمَكَ الْقُرْآنَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ ...}	١-٦ / ٥٢
المسد		{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}	١-٢ / ٩٠/٢٥
			١١٧

مسرد الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث
٤٣	"اشتكى رسول الله فلم يقم ليلتين أو ثلاثا..."
٦٦	انشق القمر على عهد رسول الله..."
٧٤	"أما زينب ابنة جحش فعصمها الله بدينها..."
١٠٥	أن أناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فلم يسأله أحد منهم إلا...
٢٦	أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن..."
٣٦	أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله..."
٩١	أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد...
١٩	"إن عظم الجزاء مع عظم البلاء..."
٥٢	أن قريشا دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا...
٧	"إن من أصحابي من لا يراني بعد أن فارقني..."
٣٠	أن هذه الآية التي في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك..)
٣٨	"إنها طيبة تنفي الذنوب..."
٢٥	"أولى لك فأولى، قال: أبو جهل بن هشام"
١٠٧ / ٨٤	أومخرجي هم...
٦٩ - ٦٨	بيننا الناس في بقاء في صلاة الصبح..."
٧٧	"خرجنا مع النبي ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة..."
٩٥	دخلت على رسول الله في وجعه الذي قبض فيه...
١٩	سئل رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء..."
١٤٧	"سحر النبي ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله..."
١٤٧	"شاهت الوجوه..."
١٣٢ / ١٢٧	فأنيت نبي الله ﷺ فقلت: ألسنت نبي الله حقا...
٥٣	فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته..."

٤٤	"فوالله ما الفقر أخشى عليكم..."
٢٨	قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك..."
٨١	قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه...
١٣٠	قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى (إذا استيأس الرسل...
هامش ١٢٦	قال: فهل يغدر؟ قلت: لا...
٧٦	قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي..."
٩٤	كان النبي يقول في مرضه الذي مات فيه...
٦٨	كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر...
٥٣	كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون..."
٤٧	كنت فيمن يُسأل..
٨٤	لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال: أما والله لأخرج منك...
٤٤-٤٣	لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتوه فقالوا..."
١١٥-١١٤	لما نزلت (إنا فتحنا لك فتحا مبينا...
٦١	لما نزلت (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم..."
١١٧	لما نزلت (تبت يدا أبي لهب وتب) جاءت امرأة أبي لهب...
٣٢	"ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد..."
١٣٢-٨٥	"ما ظنك باتنين الله ثالثهما..."
١٧	"ما من مسلم يصيبه أذى شوكة..."
١٨	"ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب..."
١٧-١٦	"ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة..."
١٢	"من يرد الله به خيرا يصب منه..."
١٢٣/٤٦	"مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق..."
٨٧	"نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة..."
٢٥	"نعم، يبعث الله هذا، يمينك، ثم يحييك..."

٨٥	"نظرت إلى أقدام المشركين..."
١٠٤	نهر أعطيه نبيكم ﷺ...
٩٢	هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟...
٨٥	"وأتبعنا سراقه بن مالك فقلت: أتينا يا رسول الله..."
هامش ١١٨	وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ (إنك لا تهدي من أحببت...)...
٢٥-٢٤	"يا بني فھر يا بني عدي..."
١٠٧ / ٨٤	"يا ليتني فيه جذعا أكون حيا حين يخرجك..."
٧٣	"يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه..."
١٧	"يود أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم..."

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الألباني، محمد ناصر الدين: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان. دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة. ط ١، ١٤٢٤هـ.
- الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. ط ١، ١٤١٥هـ.
- الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير وزياداته. المكتب الإسلامي. بلا طبعة.
- الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح السيرة النبوية. دار المكتبة الإسلامية. عمان، الأردن.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. ط ١. ١٤٢٢هـ.
- البزار، أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق: مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وآخرون. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة (ط ١) ١٩٨٨م.
- ابن بطلال: أبو الحسن علي بن خلف: شرح صحيح البخاري لابن بطلال. تحقيق: ياسر بن إبراهيم. مكتبة الرشيد، السعودية، (ط ٢) ١٤٢٣هـ.
- البغوي، الحسين بن مسعود: معالم التنزيل في تفسير القرآن. المحقق: عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط ١) ١٤٢٠هـ.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- البلاي، عبد الحميد: المصطفى من صفات الدعاة. مكتبة المزار الإسلامية. الكويت، حولي. (ط ١) ٢٠٠٠م.
- البناء، حسن أحمد عبد الرحمن: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البناء. مكتبة الإيمان بالمنصورة أمام جامعة الأزهر. ١٩٩٢م.
- البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط ١) ١٤١٨هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. دار الكتب العلمية - بيروت

الطبعة: الأولى - ١٤٠٥ هـ.

● البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى: **السنن الكبرى**. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ٣، ١٤٢٤ هـ.

● الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة: **الجامع الكبير سنن الترمذي**. تحقيق: بشار عواد معروف. دار العرب الإسلامي، بيروت. ١٩٩٨ م.

● الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف: **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**. المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط ١)، ١٤١٨ هـ.

● الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم: **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**. تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشر، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (ط ١)، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

● جرار، بسام نهاد: **سياحة الفكر (مقالات في التفسير)**. مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية. البيرة، فلسطين. (ط ١) ٢٠١٣ م. ص ٣٣٢.

● ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد: **التسهيل لعلوم التنزيل**. تحقيق عبد الله الخالدي. دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت. (ط ١) ١٤١٦ هـ.

● الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: **الصاحح تاج اللغة وصحاح العربية**. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين - بيروت. (ط ٤)، ١٤٠٧ هـ.

● الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه: **المستدرک علی الصحيحین**. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. باب ذكر مناقب بشر بن البراء. دار الكتب العلمية، بيروت. (ط ١) ١٤١١ هـ.

● ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد الدارمي: **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**. ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت. (ط ١)، ١٤٠٨ هـ.

● ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. تحقيق محب الدين الخطيب. دار المعرفة - بيروت، ط ١٣٧٩ هـ.

- الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد: السيرة الحلبية إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون. دار الكتب العلمية - بيروت (ط ١) ١٤٢٧هـ.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، (ط ١)، ١٤٢١هـ.
- الخازن، علاء الدين علي بن محمد: لباب التأويل في معاني التنزيل. تحقيق تصحيح محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت (ط ١) ١٤١٥هـ.
- الخلف، سعود بن عبد العزيز: دحض دعوى المستشرقين أن القرآن من عند النبي صلى الله عليه وسلم. غراس للنشر والتوزيع.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود. المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- الربيعي، محمد بن محمد بن أحمد: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير. تعليق: إبراهيم محمد رمضان. دار القلم، بيروت. (ط ١) ١٩٩٣م.
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر: مفاتيح الغيب. دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط ٣)، ١٤٢٠هـ.
- رضا، محمد رشيد: تفسير المنار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٠م.
- الزحيلي، وهبة بن مصطفى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. دار الفكر المعاصر، دمشق. ط ٢ سنة ٢٤١٨هـ.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، (ط ٣)، ١٤٠٧هـ.
- أبو زهرة، محمد بن أحمد: خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم. دار الفكر العربي - القاهرة، (ط ١) ١٤٢٥هـ.
- أبو زهرة، محمد بن أحمد: زهرة التفاسير. دار الفكر العربي.
- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد: بحر العلوم. بلا طبعة.

- السمعاني، منصور بن محمد المروزي: تفسير القرآن. المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض - السعودية، (ط) ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: عمر عبد السلام السلامي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. (ط) ١٤٢١هـ.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: لباب النقول في أسباب النزول. تحقيق أحمد عبد السلام. دار الكتب العلمية، بيروت.
- الشافعي، محمد بن إدريس: تفسير الإمام الشافعي. تحقيق: أحمد بن مصطفى الفران. دار التدمرية، السعودية. ط ١. ٢٠٠٦م.
- الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي {الخواطر}. مطبعة أخبار اليوم، نشر عام ١٩٩٧.
- أبو شهبة، محمد بن سويلم: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة. دار القلم - دمشق، (ط) ٨، ١٤٢٧هـ.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح القدير. دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت. ط ١، ١٤١٤هـ.
- الصلابي، علي محمد: السيرة النبوية - عرض وقائع وتحليل أحداث. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، (ط) ٧، ١٤٢٩هـ.
- الصنعاني، عبد الرازق بن همام: تفسير عبد الرازق. تحقيق: محمود محمد عبده. دار الكتب العلمية، بيروت. (ط) ١٩٤١هـ.
- الصنعاني، أبو بكر عبد الرازق: المصنف. تحقيق: عبد الرحمن الأعظمي المجلس العلمي الهند. المكتب الإسلامي، بيروت. (ط) ٢، ١٤٠٣هـ.
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الصغير. تحقيق محمد شكور محمود الحج امير. المكتب الإسلامي، دار عمار. بيروت - عمان. (ط) ١، ١٤٠٥هـ.
- الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد: التحرير والتنوير، الدار التونسية. تونس، ط ١٩٨٤هـ.
- عرموش، أحمد راتب: قيادة الرسول السياسية والعسكرية. دار النفائس، بيروت، لبنان. (ط) ٢.

١٩٩١م.

- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط١) ١٤٢٢ هـ.
- العيني، أبو محمد محمود بن أحمد: **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**. دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- غلوش، أحمد أحمد: **السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني**. الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط١) ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: **معجم مقاييس اللغة**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر. ط١٣٩٩ هـ.
- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط**. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان. (ط٨)، ١٤٢٦ هـ.
- القاسمي، محمد جمال الدين: **محاسن التأويل**. تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٨ هـ.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش. دار الكتب المصرية، القاهرة. (ط٢) ١٩٦٤ م.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن: **لطائف الإشارات**. المحقق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط٣.
- قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت - القاهرة. ط١٧، ١٤١٢ هـ.
- ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**. تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٩٩١ م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد: **الطب النبوي**. دار الهلال، بيروت.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **مدارج السالكين بين إياك نعب وإياك نستعين**. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. دار الكتاب العربي، بيروت. ط٣، ١٤١٦ هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)**. تحقيق: مصطفى عبد الواحد. دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. ١٣٩٥ هـ.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **تفسير القرآن العظيم**. المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع. (ط ٢)، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- المباركفوري، صفي الرحمن: **الرحيق المختوم**. دار الهلال، بيروت.
- ابن ماجه: أبو عبد الله محمد القزويني: **سنن ابن ماجه**. كتاب الزهد. باب مجالسة الفقراء. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: **تفسير الماوردي (النكت والعيون)**. المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
- مجاهد، أبو الحجاج بن جبر المخزومي: **تفسير مجاهد**. تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل. دار الفكر الإسلامي الحديث، مصر. (ط ١) ١٩٨٩م.
- مسلم، أبو الحسن بن الحجاج : **صحيح مسلم**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مقاتل، أبو الحسن مقاتل بن سليمان: **تفسير مقاتل بن سليمان**. دار إحياء التراث - بيروت، (ط ١) ١٤٢٣ هـ.
- المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد: **الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج البخاري ومسلم في صحيحهما**. دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت - لبنان. (ط ٣) ١٤٢٠هـ.
- المقرئ، أحمد بن علي بن عبد القادر: **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**. تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - (ط ١) ١٤٢٠هـ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. دار صادر، بيروت - لبنان. (ط ٣)، ١٤١٤هـ.
- النجار، محمد الطيب: **القول المبين في سيرة سيد المرسلين**. دار الندوة الجديدة - بيروت - لبنان.
- الندوي، أبو الحسن علي: **السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي**. دار ابن كثير - دمشق. (ط ١٢).
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود: **تفسير النسفي {مدارك التنزيل وحقائق التأويل}**. تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب - بيروت - (ط ١)، ١٤١٩هـ.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب: **السيرة النبوية**. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري

وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (ط٢)، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م. باب ما لقيه الرسول يوم أحد.

● الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان: **المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي**. تحقيق: سيد كسروي حسن. دار الكتب العلمية، بيروت.

● الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: **أسباب نزول القرآن**. المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان. الناشر: دار الإصلاح - الدمام، (ط٢)، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م،

● الواحدي: أبو الحسن، علي بن أحمد: **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون. دار الكتب العلمية، بيروت. (ط١) ١٤١٥هـ.

● الواقدي، محمد بن عمر بن واقد: **المغازي**. تحقيق مارسدن جونس. دار الأعلمي، بيروت. (ط٣) ١٩٨٩م.

● أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى: **مسند أبي يعلى**. تحقيق: حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث، دمشق. (ط١) ١٤٠٤هـ.

AN-Najah National University

Faculty of Graduated Studies

**The External Ordeals of Prophet
Mohammad "Peace be Upon him" and their
Effects on Building the Character of
Preacher in the Light of the Holy Quran**

By

Yousef Mohammad Zaqout

Supervisor

Odeh Abdalla

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for
the Degree of Master of Fundamentals of Islamic Law (Usol Al-Din),
Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus,
Palestine.**

2017

**The External Ordeals of Prophet Mohammad "Peace be Upon him"
and their Effects on Building the Character of Preacher in the Light of
the Holy Quran**

By

Yousef Mohammad Zaqout

Supervisor

Odeh Abdalla

Abstract

This study searches in one of the Holy Quran subjects. This subject is about catastrophe and tribulations that the prophet Muhammad (puh) faced during his spreading Islam's message (which) carried out by his enemies to destroy his message and minimize his followers. Then the study searched in the effects of those tribulations on the preacher's personality.

This study consists of three chapters and a conclusion. The first one dealt with the meaning of tribulations in the language and idiom. And the decidedness of its occurrence: it is a Sunnah of the world. Then it mentioned much of the wisdom of these tribulations for example: tribulation is necessary to enable and victory because each grant is proceeded by a tribulation. A differentiation and purification between true believer and hypocrite (unbeliever). Self-purification is one of tribulations wisdom to raise true believer value and to repent his sins.

In the second chapter it mentioned pictures of outside (outer) tribulations in propjet's life in the Holy Quran which were carried out by his enemies like Quraish. Unbelievers, Jews and hypocrites, however these

tribulations are: the temptation, obstinacy, irony, seduction, bargaining on religion, media war, displacement, chasing, intimidation, threat, besiege, the attempts of detain, body harm and hurt and finally the attempts of assassination.

In the third chapter mentioned the effects of the prophet's outer tribulations in building the personality of the preacher: therefore, the most important of these effects are: patience, durability, the confidence in the authenticity of the approach feeling God's help in every tribulation, focusing on the main aim and ignoring false people's actions (allegations), planning to confront the tribulations, and trying not to surrender for it or adjusting with it. Moreover, the last of these effects is being sure of victory from god to his religion and his sponsors which is a fact mentioned in the Holy Quran and his prophet's Sunnah which for sure fills the sponsor's self with trust, certainty and confidence in his thoughts, noble aims nomatter what tribulations he faces in his life.

According to the conclusion, it summarizes the talk about the importance of the result which the researcher came to through this study.